د. نبيل فاروق

قلبي ليس للبيع

Looloo
www.dvd4arab.com

علمتنا الحياة أنه لكل شئ في الوجود ثمن....

والحب ليس استثناءً...

حتى الحب له ثمن...

الفارق الوحيد هو أن ثمن الحب...

حب...

د.نبيل فاروق

الوداع

جففت (هدى) دموعها ، وهى ترقد فى فراشها ، وتحتضن صـــورة خطيبـــها (عادل)، الذى ودعته منذ ساعات ، وهو يستقل الطائرة ، فى طريقه إلى الولايات المتحدة الأمريكية ..

لم تكن تحتمل فكرة فراقهما طيلة شهور ثلاثة ، هى المدة التـــى ســيقضيها (عادل) فى عمله هناك ..

كانت تحبه ..

تحبه بحق ..

منذ عرفته ، وهى تذوب حباً له ، على الرغم من أنه لم يبح لها بحبه علـــى نحو صريح قط .

طوال عام كامل من خطبتهما ، لم ينطق بكلمة حب واحدة ..

كانت ترى هذا الحب فى عينيه ..

فى كلماته ..

فى لمساته ..

كانت تشعر به فى كل تعاملاته معها ..

ولكنها لم تسمع منه كلمة حب أبداً ..

هكذا هى طبيعته ..

هادئ ، رصين ، خجول ..

ولهذه الصفات تحبه ..

راحت تسترجع لحظات وداعهما ، عندما احتوى كفها بين راحتيه ، واحتضنه بهما فى حنان ، ثم تطلع إلى عينيها طويلاً ، دون أن ينبس ببنت شفة .

ثم ذهب إلى حيث تقبع طائرته ..

وانطلق ..

حتى فى لحظة الوداع لم ينطقها ..

لم ينطق كلمة حب تشتاق لسماعها من شفتيه ..

وأسبلت جفنيها ، وهى تحتضن صورته فى حب ..

ونامت ..

لم تدر كم نامت ، ولكنها شعرت فجأة بضرورة أن تستيقظ ..

وعندما فتحت عينيها ، رأته أمامها ..

(عادل) بنفسه ..

بوجهه الوسيم ونظراته الحانية ..

كان ينحنى نحوها ، وعيناه تحملان نظرة حب وحنان كعادته ..

وكان مبتلاً ..

هكذا خيل إليها ..

كانت خصلات شعره ملتصقة بجبينه ، كما لو أنه قد انتهى من الاستحمام على التو..

وحاولت أن تبتسم ..

أن تهتف بدهشة لعودته ..

ولكن لسانها كان ثقيلاً ..

وجسدها كان أثقل ..

بدت كما لو أن طناً من الفولاذ يجثم على أنفاسها ..

ولم تملك سوى التطلع إليه ..

وفتح هو شفتيه ، وقال بصوت عميق :

- أحبك يا (هدى) ..

اختلج قلبها فى قوة ..

لقد نطقها ..

نطقها أخيراً ..

نطق كلمة الحب ..

اغرورقت عيناها بدموع السعادة ، وهى تتطلع إليه ، فاستطرد فى حب وحنان..

- لا تبكى يا (هدى) .. لا تبكى أبدا .. دموعك تؤلمنى .. لا تبكى ..

وفجأة ارتفع رنين الهاتف المجاور لفراشها ..

واختفى (عادل) ..

حدقت أمامها فى دهشة ، وأيقنت من أنها كانت تعيش حلما جميلا، وهى تلتقط سماعة الهاتف، وتقول فى صوت متناوم :

- من ؟

أتاها صوت يقول فى حزن :

- (هدى) .. لقد سقطت طائرة (عادل) فى المحيط .. سقطت وغرق كل ركابها يا (هدى) ..

خيل إليها أن قلبها قد توقف عن النبض، واتسعت عيناها فى ذعر وذهول، وتجمعت فيهما دمعة هائلة، اختنقت بين جفنيها، كما اختنقت تلك الصرخة فى حلقها ..

سقطت الطائرة ؟! ..

غرق كل ركابها ؟! ..

وفجأة وقع بصرها على بقعة المياه، التى تبلل أرضية الحجرة، إلى جوار فراشها تماما ..

بالتحديد عند النقطة التى كان يقف فيها (عادل) منذ لحظات، بخصلات شعره الملتصقة بجبينه ..

وفى بطء، أعادت (هدى) سماعة الهاتف ..

وبسرعة جفت تلك الدمعة فى عينيها ..

إن دموعها تؤلمه ..

هو نفسه أخبرها ذلك، مع كلمات حبه ..

فى لحظة الوداع ..

***

الانتظار

كالمعتاد ، وصلت هى أولاً ..

وكان عليها أن تنتظره ..

كل مرة يحدث هذا ..

كل مرة يكون عليها هى أن تنتظر ..

زفرت فى حنق ، وتطلعت إلى ساعتها ، ثم عادت تتطلع إلى الطريق..

إنه لا يحترم أية مواعيد ..

حتى فى عمله يصل متأخراً ..

وهى على عكسه تماماً ، تصل دوماً فى موعدها ..

وتنتظر ..

ولأول مرة ، منذ بدأت علاقتهما ، شعرت نحوه بالسخط ..

لماذا تحتمله هى دوماً ؟ .

لماذا تحتم قواعد التعامل أن تذل النساء الرجال قبل الزواج ؟..

وفى أعماقها ، انفجرت ثورة ..

لا ..

لن تنتظره هذه المرة ..

لقد وصلت فى موعدها ، وما دام هو لم يصل ، فليحتمل النتائج ..

وفى حزم اندفعت تغادر مكانها فى غضب ، وعبرت الطريق فى عصبية مفاجئة..

وارتفع صرير إطارات سيارة ، تحتك فى الطريق بقوة ، مع محاولة صاحبها إيقافها فى استماتة ، وأعقبه صوت ارتطام السيارة بجسم لدن ..

وشعرت هى بالصدمة ، ثم تلاشى شعورها بالألم بغتة ، وراحت روحها تفارق جسدها فى نعومة وهدوء ، محلقة نحو الأبدية ..

والعجيب أنها لم تشعر برهبة الموت حينئذ ، بل كل ما شعرت به هو السخط؛
لأنه حتى فى هذا ستذهب هى أولاً ..
وسيكون عليها أن تنتظره ..

***

صديقتها

هى مشكلة المشاكل ، فى حياتى كلها ..

فهى صديقتها ..

صديقة زوجتى ..

وهذه المشكلة لم تبدأ بعد زواجنا ، وإنما قبل هـذا بكثـير ، فـهى صديقـة زوجتى منذ طفولتهما وصباهما ..

وهى - كالمعتاد - نديمة أحلامها ، وكاتمة أسرارها ..

وهذا هو المزعج فى الأمر ..

فمنذ خطبتنا ، لاحظت أن زوجتى (خطيبتى آنذاك) شديدة التعلـق بصديقتـها (كوثر)، وأنهما تتزاوران أكثر مما ينبغى - من وجهة نظرى - ولكننى لـم أولِ هذا الأمر اهتماماً فى أيام الخطبة ، لأن ظروف عملى لم تكـن تسـمح لـى إلا بأوقات قليلة، أقضيها مع خطيبتى أسبوعياً ، وكان مـن المسـتحيل بـالطبع أن نقضى هذه الأوقات القليلة فى مناقشة أمر كهذا ، إذ كان لا يكاد يكفينا لنختلـس سويعات من الحديث الهامس العاشق ..

ولكن ، وفى المرات القليلة التى ألتقيت فيها بـ(كوثر) ، فـى أثنـاء فـترة الخطوبة، لاحظت أمرا لم يرق لى أبدا ..

لاحظت أن (كوثر) تعرف عنى كل شئ تقريبا ..

أو بمعنى أدق ، تعرف كل ما أرويه لـ(فاتن) - خطيبتى - عن نفسى ..

وكان هذا يعنى أن (فاتن) تروى لـ(كوثر) كل شئ ..

حتى ما أرويه لها ..

وكان هذا يضايقنى كثيرا ، بل يشعرنى أحيانا بالحرج والحنق ، وبأننى أشبه بشخص خاضع لمراقبة دقيقة ، فلا يملك حتـى الاحتفـاظ بلحظـات شخصيـة وخاصة..

ولكننى - للأسف - لم أعترض حينذاك ..

وتزوجنا ..

تزوجت (فاتن) ، وأنا أعلم أننى فى الواقع قد تزوجتهما معاً ..

أو فقدتهما معاً ..

فمنذ أول صباح لنا ، لعنت ذلك الهاتف ، الذى ظلتا تتبادلان الحديث عبره لساعة كاملة ، قبل أن أقنع (فاتن) بضرورة إنهاء المحادثة ، لمنح باقى المهنئين فرصة الاتصال بنا ..

وبعد أشهر قليلة ، بدأت المحادثات تتخذ طابعاً مخيفاً ..

طابع الهمس ..

كانت (كوثر) تزورنا كثيراً بمعدل لا يقل عن مرتين يومياً ، وعلى الرغم من هذا، فقد كانت تتحدث مع (فاتن) لساعة ونصف يومياً على الأقل ، عبر أسلاك الهاتف..

وفور ظهورى ، كان حديثهما يتحول إلى الهمس الحذر ، وكأننى ضيف غير مرغوب فيه ، أو عدو شرير ، لا ينبغى له معرفة ما يدور بين الأصدقاء ..

وكنت واثقا من أن (فاتن) تفعل نفس ما كانت تفعله ، أيام خطبتنا ..

كانت تروى لها أسرارنا ..

وهنا شعرت بخطورة هذه الصداقة ، وبضرورة العمل على إنهائها بأى ثمن..

ولكن كيف؟

هذا هو السؤال ..

فى البداية لجأت إلى الأسلوب البسيط ، وصارحت (فاتن) بكل ما يضايقنى، بشأن علاقتها بـ(كوثر) ، وطالبتها بتخفيف صداقتها بها ، ولكننى فوجئت بـ(فاتن) تواجهنى فى عدوانية عجيبة ، وهى تقول :

– ولماذا لا تقطع أنت علاقاتك بأصدقائك ؟

قلت فى دهشة :

– وما شأن أصدقائى بالأمر ؟ .. إن صداقتى بهم لم تمس يوماً حياتنا الزوجية.. إنك حتى لا تعرفينهم ، وهم غير معتادين على زيارتنا .

قالت فى صرامة :

– هذا شأنهم ، أما صداقتى أنا بـ(كوثر) ، فهى صداقة متينة ، لا تنفصم أبداً..

هتفت فى غضب :

– ولكن ليس من حقك نقل أسرارنا إليها .

قالت فى حدة :

– لا تلق الاتهامات جزافاً .. ألديك دليل واحد على ما تقول ؟

أجبتها فى مرارة :

– لسنا هنا فى محاكمة ، لتطالبينى بالدليل .

صاحت :

– ولسنا هنا فى سجن ، لتطلب منى قطع علاقتى بأفضل صديقة لدى..

وأدركت أن هذه الوسيلة فاشلة تماما ، وأن (فاتن) لن تقطع علاقتها بـ(كوثر) أبدا إكراما لى ..

وكان على أن أجد وسيلة أخرى ..

وبدأت فى معاملة (كوثر) بشئ من البرود والتجاهل ، عسى أن تشعر أنها ضيف غير مرغوب فيه ، فتكف عن زيارتنا ..

ولكن (كوثر) لم تنقطع أبدا عن زيارتنا ..

كل ما حدث هو أن زوجتى أصبحت تستقبلها عند الباب ، وتنتقل معها مباشرة إلى حجرة الصالون ، وهناك تنهمكان فى حديث هامس ، من المؤكد أننى وأسلوبى محوره الأول ..

وبدأت (فاتن) تعاملنى فى جفاء مماثل ، وكأنها تنتقم لصديقتها منى ..

وأدركت أن هذا الأسلوب أيضاً قد فشل ..

وأخذت أبحث عن أسلوب آخر ..

وفجأة قفزت تلك الفكرة إلى رأسى ..

وكانت فكرة جهنمية بحق ..

وعبقرية ..

وفى أول زيارة لـ(كوثر) ، كنت مستعداً تماماً ، فارتديت أفخر ثيابى وأكثرها أناقة، وحلقت ذقنى فى عناية ، وصففت شعرى جيداً ، وأضفت لمسة من عطر رجالى فاخر ، ثم أسرعت أسابق زوجتى ، وأستقبل (كوثر) بابتسامة عريضة..

وفى ذلك اليوم كانت دهشتهما كبيرة - (كوثر) و (فاتن) - عندما بالغت فى الاحتفاء بـ(كوثر) ، وتبادلت معها حديثا وديا باسما ، وتصورت زوجتى أن هذه هى طريقتى فى الاعتذار ، عن معاملاتى الجافة السابقة مع صديقة عمرها ..

ولكنها لم تفهم ما اعتزمه ..

لقد كانت هذه هى البداية ..

مجرد البداية ..

وفى الأيام التالية رحت ألعب دور العاشق الولهان ، فأعود فى كل يوم إلى المنزل، ومعى زهرة حمراء ، وشريط من شرائط أغنيات (عبد الحليم حافظ)، وأظل طيلة الوقت استمع إلى الأغنيات فى هيام ، وأنا أرفع الزهرة إلى أنفى كل دقيقة..

ورحت أسأل فى لهفة عن مواعيد زيارات (كوثر) ، وأحرص على استقبالها بكل أناقة ، بل على إحضار بعض الحلوى الأنيقة اللذيذة ، كلما حضرت لزيارتنا..

وبعد أسبوع واحد ، ألقيت طعما جديدا ، عندما خاطبت زوجتى باسم (كوثر)، وأنا أتظاهر بالشرود ..

وبدأت زوجتى تضيق بزيارات (كوثر) ، بعد أن كانت تنتظرها فى لهفة ، فى حين ضاعفت أنا من تظاهرى باللهفة لتلك الزيارات ، ومن حفاوتى الزائدة بـ(كوثر) ، عند قدومها ..

ولأول مرة منذ حداثتهما ، بدأت بعض المشاحنات البسيطة تنشأ بين (فاتن) و(كوثر) ، وفى كل مرة كنت أقف إلى جوار (كوثر) فى حماس ، حتى لم تعد زوجتى تطيق زيارات (كوثر) ، أو حتى سماع اسمها ..

ثم كانت المشاجرة الكبرى بينهما ..

وبعدها انقطعت (كوثر) عن زيارتنا تماما ..

ومنذ ذلك اليوم ، أصبحت (فاتن) تثور ، كلما سألتها عن (كوثر) ، وعن سر غيابها الطويل ..

وأدركت أننى قد توصلت إلى ما أبتغيه ، باستخدام أقوى سلاح ضد المرأة .. الغيرة ..

تلك الغيرة التى جعلت زوجتى تخسر صداقة عمر بأكمله ..

والتى جعلتنى أربح سعادتى وارتياحى فى منزلى ، دون تدخل منها .. من صديقتها .

***

الوسيم

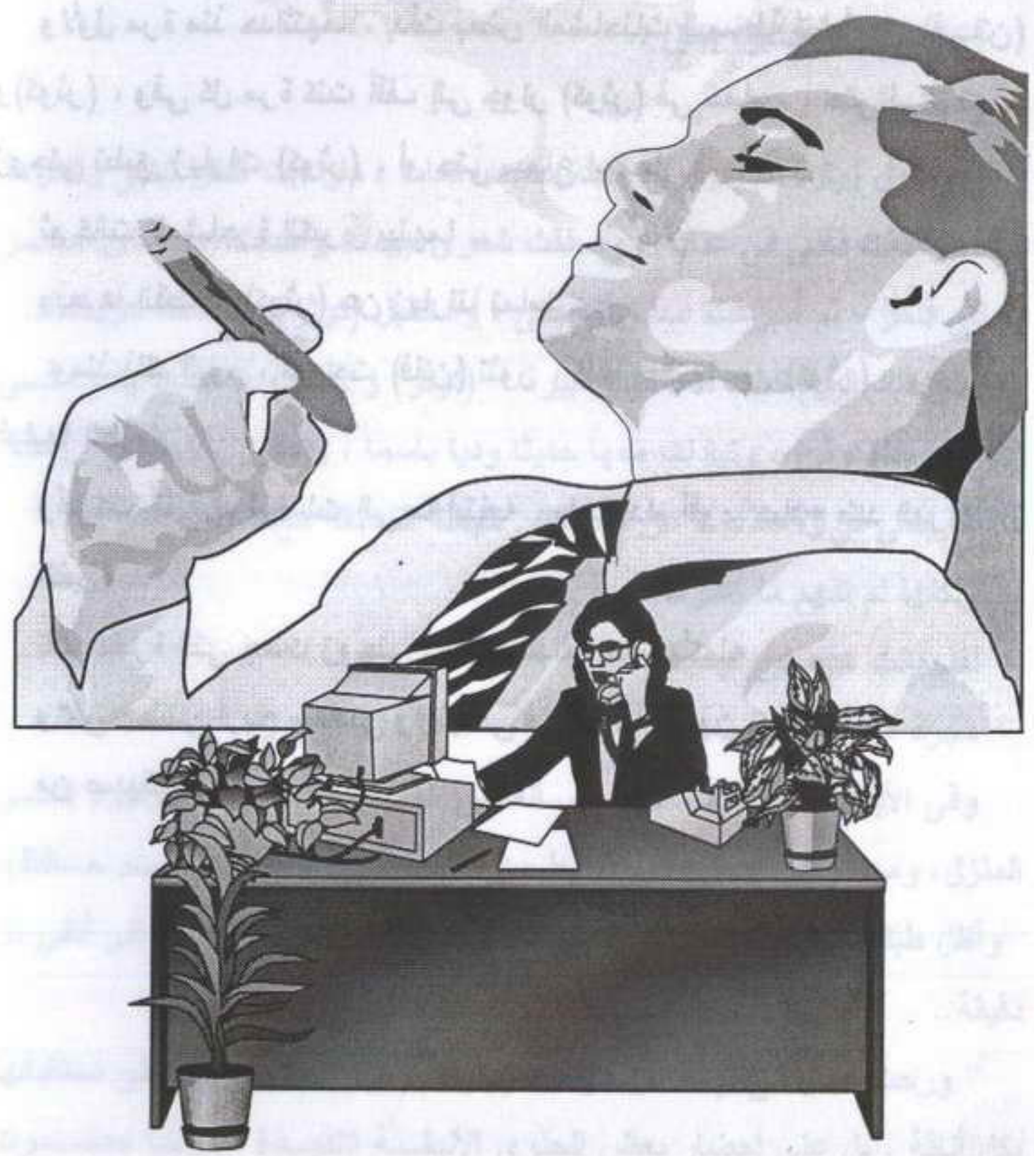

"صباح الخير يا سيادة المديرة .."

نطق (عماد) العبارة فى خفوت ، وبأقصى عذوبة أمكنه استخدامها ، وهو يرسم على شفتيه ابتسامة جذابة ، من تلك الابتسامات ، التى اعتاد التدرب على أدائها أمام المرآة ، لم تلبث أن اكتست بشئ من الثقة ، عندما التفتت المديرة إليه، وخلعت منظارها الطبى ، وهى تتأمله فى اهتمام ..

كان يعلم أنه وسيم ، جميل المظهر ، يشبه كثيراً ذلك الممثل الشاب ، الذى لم يحمل من مؤهلات فى عالم السينما ، سوى وسامته الشديدة ، التى فتحت له أبواب التقدم والنجاح ..

ويعلم أن المديرة ما تزال فتاة (عانس) ، لم تفز بالزواج بعد ، على الرغم من سنوات عمرها ، التى تجاوزت الأربعين ببضع سنوات ، ولم تحظ أبداً بما يمكن القول أنه شئ من الجمال ..

كانت دميمة بالفعل ، ذات وجه أطول مما ينبغى ، وعينين أضيق مما يمكن، حتى لتحار وأنت تتطلع إليها فيما إذا كانت تغلق عينيها أم تفتحهما ، أضف إلى هذا أنفها الضخم ، وشفتيها الغليظتين ..

إنها دميمة ، دون أدنى قدر من المبالغة ..

وكانت أول مرة يلتقى فيها (عماد) بها مباشرة ، على الرغم من أنه يعمل بالشركة منذ أسبوعين كاملين ، ولم يكن من المفترض أن يكون اللقاء لصالحه، إذ أن المديرة هى التى طلبت رؤيته ، بعد أن غاب عن عمله يومين متتالين، دون إذن أو عذر ..

ولقد سمع الكثير عن صرامة المديرة وشدتها ، فى التعامل مع موظفيها، وسمع أكثر عن أولئك الذين طلبت مقابلتهم لمنحهم عقوبة أشد من الآخرين وأكثر قسوة..

وعندما ذهب لمقابلة المديرة ، كان قد اتخذ قراره فى شأن أسلوب التعـــامل معها..

لقد قرر الإيقاع بها فى حبائله ، كما فعل بالكثيرات من قبل ..

سيستغل وسامته وملامحه ، لدفع قلبها إلى الخفقان ، وإشعال النـــيران فـــى عروقها ، حتى تنبعث أنوثتها مرة أخرى فى نفسها ، ويهوى قلبها بين يديه،و.. ويصبح أقوى رجل فى الشركة ..

كان يعلم أنها تكبره بأكثر من خمسة عشر عاماً ، ولكن هذا لم يكـــن يعنيـــه كثيراً فهو يتصور أن هذا الفارق يجعل موقعه أكثر قوة ، وموقفها أكثر ضعفاً .. ويبدو أنه سينجح ..

ها هى ذى المديرة تتطلع طويلاً إلى وسامته فى صمت ، ومن الواضـــح أن جماله قد بهرها ، حتى أنها لم تنطق بحرف واحد ، إلى أن قال هو :

- لقد طلبت رؤيتى .

قالها مستخدماً نفس الصوت الناعم والابتسامة الجذابة ، فاعتدلت المديـــرة، وتنحنحت، وكأنها تنفض عن نفسها ذلك الانبهار ، قبل أن تقول :

- أنت (عماد حازم) ؟

أجابها وهو يتطلع إلى عينيها مباشرة :

- إنه أنا .

رأى نظرة دهشة تطل من عينيها ، وهى تواجه نظراته المباشرة ، قبـــل أن تشيح بوجهها ، وتقول :

- لقد غبت يومين عن عملك يا أستاذ (عماد) ، دون سبب واضح .

همس فى نعومة:

- (عماد) .. لا داعى لكلمة أستاذ هذه .. يكفيك مخاطبتى باسمى مجـــردا.. هذا يسعدنى أكثر .

مرة أخرى تطلعت إليه فى دهشة ، وتخضب وجهها بحمرة الخجل ، قبـــل أن تشيح بوجهها ثانية ، وتقول فى توتر :

- إنك لم تجب سؤالى بعد .

كان من الواضح أن أسلوبه قد ترك أثراً واضحاً فى نفسها ..

لقد شعر بهذا ، بخبرته الطويلة فى التعامل معها ، مما زاد من ثقته بنفســـه ودفعه إلى خطوة أكثر جرأة ، وهو يقول :

- غبت ، لأننى لم أعد احتمل .

سألته فى دهشة :

- لم تعد تحتمل ماذا ؟

مال نحوها ، هامساً :

- لم أعد احتمل عواطفى الملتهبة .

رددت فى دهشة بالغة :

- عواطفك .

ثم هتفت مستنكرة :

- وما شأن عواطفك بالعمل ؟

مال نحوها أكثر ، ورسم فى عينيه نظرة عاطفية ، تفيض بالهوى والولـــع ، وهو يجيب :

- ألم تشعرى بى أبدا يا سيادة المديرة ؟ .. ألم تلفت نظراتى إليك انتبـــاهك؟ ألم تلاحظى أبدا عواطفى نحوك ؟

لمح تلك الارتجافة ، التى سرت فى جسدها ، وهى تقول :

- ألاحظ ماذا ؟

ترك صوته يتهدج ، وهو يقول :

– اعذرينى يا سيادة المديرة .. أعلم أنك تفوقيننى منصباً ، وأننى واحد من آلاف محبيك ومعجبيك ، ولكن ما ذنب قلبى ، الذى انتخبك من وسط كل نساء الأرض، ليهبك نفسه ، ويذوب فى هواك ؟!

اضطربت أكثر وأكثر ، وأعادت منظارها إلى عينيها ، وهى تقول :

– أستاذ (عماد) .. إننى ..

قاطعها وهو يقترب منها ، ويهمس بصوت أكثر تهدجاً :

– لا ترفضى مشاعرى .. أرجوك .. لا تقتلى قلبى المحب فى مهد عاطفته السامية.. افصلينى من الشركة ، لو اقتضى الأمر ، ولكن لا تجرحى مشاعرى.

رآها تزدرد لعابها فى توتر ، وهى تبتعد بنصفها العلوى عنه ، قائلة :

– أنت تعلم أننى لا أستطيع فصلك يا أستاذ (عماد) ، فالقانون لن ...

عاد يقاطعها :

– ارحمى قلبى إذن .. رباه !! ما الذى فعلته لأتعذب أمام كل هذا الجمال؟

كانت إشارته إلى جمالها أكبر كذبة نطق بها فى حياته كلها ، وعلى الرغم من هذا فقد رأى قشعريرة تسرى فى جسدها ، وهى ترفع أصابعها دون وعى، لتتحسس أنفها الضخم ، وشفتيها الغليظتين ، فمد يده يرفع منظارها عن عينيها، وهو يقول :

– لا تخفى عينيك الجميلتين ، خلف هذا المنظار .. دعينى أر أجمل عينين فى الدنيا.

تركته يخلع منظارها ، وهى جامدة فى مقعدها ، تحدق فى وجهه بنظرة عجيبة، جعلته يوقن من الفوز بهذه اللعبة الجديدة ، فاعتدل هاتفا :

– رباه ! .. ما أجمل عينيك ! .. قلبى يذوب فى سوادهما ، ويسبح وسط رموشهما البديعة .

قالها دون أن يدرى ما إذا كانت عيناها سوداوين حقاً ، أم أن هذا ظل جفنيها فوقهما، ورآها تلتقط المنظار من يده فى رفق ، وهى تقول فى خفوت :

– أرجوك يا أستاذ (عماد) .. عد إلى مكتبك .

همس فى نعومة :

– لا داعى لكلمة أستاذ هذه .. أرجوك .

رأى على شفتيها ابتسامة خفيفة ، وهى تقول :

– فليكن .. عد إلى مكتبك يا (عماد) .

كاد قلبه يرقص طرباً ، عند هذه النقطة ، فقد أعلنت بقولها انتصاره، مما جعله يهتف فى سعادة :

– يا إلهى ! .. لقد قلتها أخيرا .. قلتها يا فاتنتى .

أعادت منظارها إلى عينيها ، وهى تقول :

– نعم يا (عماد) .. لقد قلتها .. هيا .. عد إلى مكتبك قبل أن يتساءل الموظفون عن سر وجودك هنا لوقت طويل .

تهللت أساريره ، وقال :

– بالطبع .. سأعود إلى مكتبى ، وسنلتقى فيما بعد .. بالطبع .

غادر مكتبها وكل خلية من خلاياه ترقص طربا ..

لقد حقق ما كان يسعى إليه ..

وضع المديرة فى جيبه ..

أو بمعنى أدق .. قلب المديرة ..

عاد إلى مكتبه وثغره يحمل ابتسامة واسعة ، أثارت دهشة زملائه ، الذين لم يشاهدوا من قبل أحدهم ، يغادر مكتب المديرة وهو يحمل مثل هذه الابتسامة، حتى أن إحدى زميلاته هتفت فى فضول :

– لقد اكتفت بخصم اليومين من راتبك .. أليس كذلك ؟

هز رأسه نفيا فى ثقة ، وقال :

- مطلقا .

سأله زميل آخر فى دهشة :

- ماذا فعلت إذن ؟

اتسعت ابتسامته الواثقة أكثر وأكثر ، وهو يقول :

- سيدهشك ما ستفعله .

كان واثقا من أن قرارها سيدهشهم حتما ، فقد غادر مكتبها وهو يضع قلبها فى جيبه ، ومن المستحيل أن تؤذى المرأة رجلا وقعت فى حبه ..

خبرته تؤكد له هذا ..

إنه سيتميز بحبها حتما بين أقرانه ..

ربما جعلته يرأس المكتب ..

أو منحته ترقية استثنائية ..

أو مكافأة خاصة ..

المهم أن قرارها لن يكون طبيعيا ..

هذا ما يثق به تماما ..

ولم تمض لحظات ، حتى اندفع سكرتير مكتب المديرة داخل الحجرة ، وهو يهتف به :

- ما الذى فعلته بالمديرة يا (عماد) ؟

ابتسم (عماد) فى ثقة ، وهو يقول :

- وما الذى يدعوك إلى السؤال ؟

لوح سكرتير مكتبها بورقة فى يده ، وهو يقول فى انفعال :

- هذا القرار .. إنها لم تتخذ مثيلا له ، منذ عملت معها .

قفزت زميلته إلى السكرتير ، وهتفت فى فضول :

- دعنى أقرأ هذا القرار .

جرت عيناها على سطور القرار فى سرعة ، قبل أن تهتف فى دهشة بالغة:

- مستحيل !

ثم رفعت عينيها إلى (عماد) مستطردة :

- ماذا فعلت بها حقا يا (عماد) ؟

اتسعت ابتسامة (عماد) الواثقة ، وزميله يسأل السكرتير :

- ما هذا القرار بالضبط ؟

تطلع السكرتير إلى (عماد) ، وقال :

- لقد أمرت بإحالته إلى التحقيق .

تلاشت ابتسامة (عماد) ، وحلت محلها نظرة دهشة ، لم تلبث أن استحالت إلى ذهول جارف ، والسكرتير يستطرد :

- وطلبت إحالته أيضا إلى طبيب نفسى ، لفحص حالته العقلية .

ثم تطلع مرة أخرى إلى (عماد) يسأله :

- ماذا فعلت بها حقا يا (عماد) ؟

وانفجر (عماد) باكيا .

***

بدون عمل

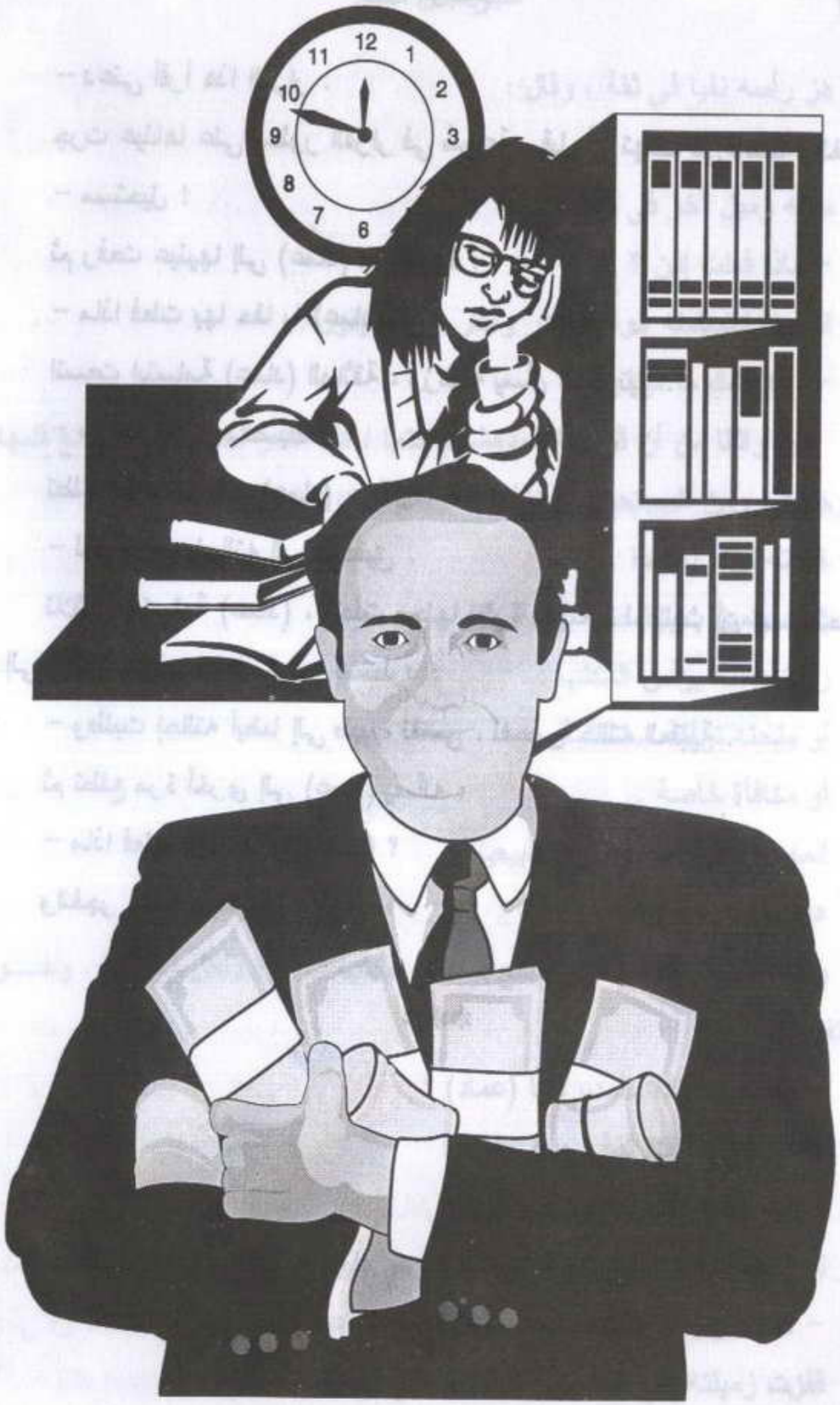

من المؤكد أن قصة (مجدى) و (ليلى) كانت عادية جداً فى البداية، فلقد التقيا وتعارفا، وأحب كل منهما الآخر ، ثم تقدم (مجدى) لخطبة (ليلى) ، وأبدى والدها بعض الاعتراض فى البداية حتى عثر (مجدى) علـــى شقـــة مناســبة، وتمـــت خطبتهما التى استغرقت عاماً واحداً ، تم بعده زفافهما الذى لم يمض عام واحـــد عليه حتى وضعت (ليلى) طفلها الأول الذى أطلقت عليه اسم (أحمد) ..

إلى هنا والقصة عادية بالطبع ..

حتى عندما بدأت مشكلة البحث عن مكان لـــ(أحمد) ، لتذهـــب (ليلـــى) إلـــى عملها اليومى، ظل الأمر مألوفاً عادياً لولا أن تكورت بطن (ليلى) مرة ثانية، بعد أشهر قليلة، لتعلن قرب قدوم الطفل الثانى الذى لم يستعد الزوجـــان لاســتقباله بعد..

ولكن الطفل الثانى أتى ، بعد أقل من عام من مولد (أحمـــد) ، وجـــاء أنثـــى جميلة هذه المرة ، لها نظرة أمها ، وابتسامة أبيها ..

وعندئذ بدأت المشكلة ..

كيف يمكن أن تعمل (ليلى) ، ولديها طفلان ، لا يفصلهما سوى عام واحد من العمر؟! ..

وفى البداية ، بذلت (ليلى) جهداً مضاعفاً لنقل الطفلين إلى منزل أمـــها كـــل صباح، ثم الذهاب إلى عملها فى التاسعة ، والعودة منه فـــى الثالثـــة ، لتحمـــل طفليها مرة ثانية إلى منزلها ، الذى تبلغه فى الخامسة وهى تلـــهث مـــن شـــدة التعب والإرهاق.

ولكن (مجدى) لم يحتمل هذا ..

لقد حاول الاحتمال ، والحق يقال ، إلا أن المجهود المضاعف ، الذى تبذلـــه (ليلى) ورعايتها المستمرة لطفليها ، جاءت على حساب علاقتها به ، واهتمامها بعمله الخاص ، وبمأكله وملبسه ، حتى جاء يوم ممطر واجهها فيه قائلا :

– هل سيستمر الوضع على هذه الصورة ؟

قالت فى عصبية :

– وماذا يمكننى أن أفعل ؟ إننى أعمل فى الصباح حتى المساء ، ثم أهتم بالطفلين والمنزل .

سألها فى ضيق :

– وماذا عنى أنا ؟

واجهته بأسلوب عدوانى :

– ماذا عنك ؟! .. يمكنك أن ترعى شئونك بنفسك ، ولا تنتظر منى أن أخدمك وأن أرعى شئونك أيضاً ، فكلانا يعمل ، وأنا أبذل جهداً أكبر فى رعاية المنزل والأطفال .

هتف غاضباً :

– أهذا أسلوب تخاطب به زوجة زوجها ؟

صرخت فى وجهه :

– وكيف تريد منى أن أعاملك ؟

أغضبه أسلوبها العصبى العنيف فى شدة ، ولكنه سيطر على أعصابه فى حزم وسألها وهو ينتفض غضباً فى أعماقه ، على الرغم من هدوء صوته وملامحه:

– أتجدين أنه من العسير عليك القيام بعملك وبواجباتك كزوجة ، فى الوقت ذاته؟

صاحت محتدة :

– بالطبع .. حاول أن تجرب أنت هذا ، وأن ..

قاطعها فى حزن وصرامة :

– اتركى العمل إذن .

بترت عبارتها ، وحدقت فى وجهه بدهشة ، وهى تردد :

– أترك العمل ؟!

أجابها فى قوة :

– نعم يا (ليلى) .. اتركى العمل .. لو أنك تعجزين عن التوفيق بينه وبين منزلك، وواجباتك كزوجة وأم ، فاتركيه .. هذا ما يحتمه عليك واجبك .

صاحت فى حدة :

– هل جننت ؟ .. إننى ناجحة فى عملى ، وسأحصل على علاوة مع بداية العام الجديد،و..

قاطعها غاضباً :

– وماذا ؟ .. إنك زوجة وأم ، فى المقام الأول ، وأنا أشعر أن طفلىّ يعانيان بسبب عدم تفرغ أمهما لهما .

قالت محتدة :

– إننى أمنحهما كل رعايتى ، بعد عودتى من العمل .

قال فى صرامة :

– بهذه العصبية وهذا التوتر ؟! .. إنك تصرخين فى وجهيهما طوال الوقت، ولا تحتملين أى خطأ يصدر منهما ، وتعاقبينهما فى عنف ، دون رحمة أو شفقة.

هتفت :

– لأننى متعبة طيلة النهار .

قال فى حدة :

– أرأيت ؟! هأنتذى تعترفين بصحة وجهة نظرى .

أدركت صحة قوله هذه المرة ، فعضت شفتيها فى غيظ ، ثم قالت فى صرامة:

- ولو يا (مجدى) .. لن أترك العمل أبداً .

صاح بها :

- ولن أسمح لك بالاستمرار فيه ، على حساب منزلك وطفليك .

صرخت :

- ومن قال إنك تمتلك حق السماح والمنع ؟

قال فى دهشة :

- أنا زوجك .

عقدت ساعديها أمام صدرها فى حزم ، وهى تقول فى عناد :

- لقد تزوجتنى وأنا أعمل ، والقانون لا يمنحك الحق فى منعى من العمـــل، فى هذه الحالة .

هتف بدهشة أكثر :

- القانون ؟!

ثم أضاف فى مرارة :

- لست أتحدث عن القانون يا (ليلى) ، ولن ألجأ إليه أبداً .. إننى أتحدث معك كزوجة.

قالت فى عناد أكثر :

- وأنا أرفض مجرد التفكير فى الأمر .

تفجرت كل شياطين الغضب فى وجهه ، وهب واقفا ، وهو يقول :

- لا بأس يا (ليلى) .. أنت دفعتنى إلى هذا .

وشد قامته مستطردا فى حزم :

- إننى أضعك أمام خيارين ، لا ثالث لهما يا (ليلى) ، إما أن تـــتركى العمـــل وتتقدمى باستقالتك صباح الغد ، أو ..

تردد لحظة ، فسألته فى حدة :

- أو ماذا ؟

بدا شديد المرارة ، وهو يجيب :

- أو نفترق يا (ليلى) .. أعنى الطلاق ، لو أنك أردت توضيحاً أكثر .

احتقن وجهها فى شدة ، ورددت :

- الطلاق ؟!

ثم استطردت فى غضب :

- أتهددنى يا (مجدى) ؟

أجابها فى صرامة :

- إننى أجبرك على اتخاذ خطوة واضحة حاسمة ، بشأن حياتنا .

عاودها عنادها فى شدة ، وهى تقول :

- وأنا أرفض يا (مجدى) .. أرفض ترك العمل ، وبكل إصرار .

تفجر عناده أيضاً ، وصاح فى وجهها :

- أنت طالق إذن يا (ليلى) .. طالق .. طالق .

وكانت مفاجأة للأسرتين ..

أسرته وأسرتها ..

- لم يتصور مخلوق واحد أن يتم طلاق (مجدى) و (ليلى) بعد قصة الحـــب التى جمعتهما، والتى انتهت بزواجهما ، من عامين أو أقل ..

وتدخل العديدون للإصلاح بينهما ، وإعادة المياه إلى مجاريها ..

ولكن دون فائدة ..

لم يتنازل (مجدى) عن إصراره ، ولم تتخل (ليلى) عن عنادها ..

وافترقا ..

وبحكم القانون ، حصلت (ليلى) على الشقة ، وعلى حضانة طفليها، واستأجرت من مبلغ النفقة ، التى يدفعها لها (مجدى) شهريا خادمة محترفة، لتبقى مع أطفالها طوال فترة عملها ..

وطوال العام الأول بعد الطلاق كانت (ليلى) تبدو قوية متماسكة واثقة من أن (مجدى) سيعود إليها نادما ، بعد أن يفيق من ثورته ويدرك أن طلاقهما قد أفقده شقته وأولاده ، وأفقده إياها أيضا ، بل لقد بدأت بالفعل فى التخطيط لعودته، وفى التدرب على أسلوب مقابلته وتعنيفه ، ومعاقبته على ما ارتكبه من خطأ فى حقها..

ولكن (مجدى) لم يعد ..

إنه لم يبق حتى فى (مصر) كلها ..

لقد سافر للعمل فى واحدة من دول الخليج ، وانقطعت أخباره فيها لعاملين كاملين، بذلت فيهما (ليلى) أربعة أضعاف ما كانت تبذله من جهد بعد أن صار عليها أن تلعب دور الأب والأم فى آن واحد ..

ثم عاد (مجدى) ..

لم يعد إليها ، وإنما عاد إلى (القاهرة) وابتاع شقة جديدة ، وكأنه يعلن تنازله الدائم عنها ، وعن شقته القديمة ، وبدأ مشروعا صغيرا، لم يلبث أن تطور خلال العام التالى ، وأصبح مشروعا معقولا ، يمنحه دخلا جيدا ..

ولم يبخل (مجدى) على أبنائه بالإنفاق ، بل راح يمنحهم كل ما يمكنه بغض النظر عن قيمة النفقة الشرعية ، التى يدفعها لهم ولأمهم شهريا ..

وبدأت (ليلى) تشعر بالوحدة ..

ولأول مرة ، بعد أكثر من ثلاث سنوات من الطلاق ، اعترفت لنفسها بأنها لم تعد تحتمل وحدتها ، وأنها تتوق لعودة (مجدى) إليها ..

ثم جاءت الضربة القاصمة ..

لقد تزوج (مجدى) ..

تزوج فى هدوء من واحدة من قريباته ، لا تعمل فى الحكومة أو القطاع الخاص، واستقر معها فى شقته الجديدة ، وبدأ الناس يتحدثون عن سعادتهما وحبهما واستقرارهما ، وخاصة بعد أن أنجبا طفلة جميلة لها ملامح أمها وذكاء أبيها..

وانهارت مشاعر (ليلى) .

وانهار معها الأمل فى عودة (مجدى) إليها ..

وفى البداية انتابها الغضب ، وراحت تلعن (مجدى) والزواج وحياتها كلها..

ثم قررت معاملته بالمثل ..

والمثل هنا يعنى أن تتزوج ، وتستقر مثله ، ويصبح لديها زوج وأولاد جدد،و..

ولكن من قبل الزواج منها ..

من يقبل الزواج من امرأة تخطت الثلاثين ، مطلقة ولها طفلان ؟

كلها عقبات تقف فى طريق الزواج ، من وجهة نظر المجتمع ..

وامتلأت نفسها بمرارة لا حدود لها ، جعلتها تهمل عملها ، وأولادها وحياتها كلها، وتصاب بحالة من الإحباط واليأس ، لم تشعر بمثلها من قبل .

وفجأة لاح الأمل ..

ففى يوم صحو ، زارتها شقيقتها (نوال) ، وقالت لها فى حرارة :

- (ليلى) .. عندى عريس لك .

رددت فى دهشة :

- عريس ؟!

قالتها وقلبها يخفق فى مرح وسعادة ، بعد أن أعـاد إليـها هـذا شعورهـا بأنوثتها، وبأنها لا تزال امرأة مرغوبة ، يمكنها الـزواج والإنجـاب ، وليسـت مجرد كيان مهمل ، ألقاه (مجدى) خلفه ، وتركه يتحلل فى عزلته ..

وفى لهفة لم تحاول إخفاءها ، سألت شقيقتها :

– من هو ؟ .. ولماذا يطلب الزواج منى ؟

أجابتها (نوال) فى فرح :

– رجل أعمال ثرى ، فى الرابعة والأربعين من عمره ، وهو صديق لزوجى (على)، ورآك فى أثناء إحدى زياراتك لنا .. الأروع أنه يعرف عنك كـل شـئ، ويطلب الزواج منك .. ما رأيك يا (ليلى) ؟

تضاعفت فرحتها ، وهى تقول :

– اريد أن أراه أولا .

هتفت بها (نوال) :

– بالتأكيد .. إنه سيزورنا اليوم ، وأريد منك أن تأتى فى أبهى زينتك، حتـى تبهريه، ويسارع بإتمام الزواج .

أومأت برأسها إيجابا فى حرارة ، وقد تخضب وجهها بحمرة الخجل، كما لو كانت مراهقة صغيرة ، تتلقى عرض الزواج الأول فى عمرها ..

وفى الموعد المحدد ، كانت (ليلى) فى منزل شقيقتها ، فى أبهى صورة، ولقد استقبلت العريس المنشود بابتسامة خجلى ، وصافحته بـأطراف أصابعـها، ثـم جلسة أمامه والخجل يضفى على وجهها مزيدا من الجمال والنعومة ..

ولكنها – فى أعماق نفسها – اعترفت بأنه أقـل وسـامة مـن (مجـدى) بكثيـر..

صحيح أنه ثرى ، ومعروف إلى حد ما ، ولكن شكله لا يمكن أن يوصف أبدا بالملاحة، وكذلك صوته الأجش ، وهو يقول :

– كم يسعدنى أن ألتقى بك .

همهمت بكلمات خافتة ، وهى تقنع نفسها بأنه فرصة لـن تعـوض ، علـى الرغم من عيوبه، فنقاط الضعف لديها أكبر وأكثر من هذه العيوب ، ومن المحتم عليها أن تقبله ، وإلا فقد لا يتقدم شخص آخر للزواج منها ، ما بقى لـها مـن العمر، فسنها تتقدم مع مرور الوقت ، وجمالها سـيذوى ، ويذبـل وحيويتـها ستذهب ..

إنه بالفعل فرصتها الأخيرة ..

وفى زهو ، أشعل الرجل سيجارته ، ونفث دخانها فى عمق ، وهـو يقـول ملوحا بكفه، التى يزينها خاتم ذهبى ضخم :

– سأدفع المهر الذى تطلبينه ، وسأبتاع لك أفضل شبكة فى العـالم ، علـى نحو يشرفنى ويشرفك ، وسنقيم فى فيلتى الجديدة ، فى مدينة (نصر) ، أما عن طفليك فسيكونان كولدى تماما ، وسأمنحهما كل العناية والرعاية ، حتى ننجـب لهما شقيقا أو شقيقة .

شعرت بالارتياح مع حديثه ، الذى يحررها من كل ما كان يقلقها بشأن حياتها وأولادها، فاستكانت فى مقعدها ، وتركته يواصل حديثه ، وهى تستمع إليه فـى صمت، وعلى شفتيها ابتسامة هادئة مستسلمة ، حتى اعتدل فى مقعده ، والتقى حاجباه فى صرامة ، وهو يقول :

– سأمنحك كل ما تريدين ، ولكن لى شرط واحد .

هوى قلبها بين ضلوعها ، وهى تسأله :

– ما هو ؟

أجاب فى حزم :

- لست أحب المرأة العاملة .. أريدك زوجة فقط .. بدون عمل .

ولم تتردد لحظة واحدة ..

ووافقت على أن تكون فى حياته مجرد زوجة ..

وبدون عمل .

***

مسألة مبدأ

خطيبى أيها السادة شاب غير عادى ..

ربما تظنون أنها مبالغة منى ، أو هو حبى الشديد له ، أو انبهارى به ..

ولكنكم واهمون ..

إنها الحقيقة ..

كل الحقيقة ..

خطيبى فعلاً ليس شاباً عادياً ..

إنه طيب القلب ، سليم الطوية .. شديد الحماس ، صادق القـــول ، مجتـــهد، مثابر، مهذب ، لبق ..

ولكن لديه مشكلة واحدة ..

كل شئ فى حياته مسألة مبدأ ..

ربما يدهشكم هذا القول ، أو يبدو لكم هلامياً مطاطاً ..

وربما ابتسمتم فى سخرية ، أو هتفتـــم فـــى دهشـــة ، "ولمـــاذا تعتبرينـــها مشكلة؟.."..

والشرح فى هذا الامر يطول ويطول ، وربما لا ينجح أبداً فى إقناعكم ..

ولهذا سأقص عليكم قصة واحدة ..

ثم احكموا بأنفسكم ..

عندما تخرجنا معاً من كلية الطب ، منذ عدة أعوام ، كـــان ترتيـــب خطيبـــى الخامس، وكان سعيداً للغاية ، يتقبل التهانى بابتسامة واسعة ، وفرحة واضحة، فهنأته من كل قلبى ، وقلت :

- اعتقد أنك ستصبح عما قريب أحد أعضاء هيئة التدريس فى الكلية .

وهنا تنحنح فى وقار ، وعدّل منظاره الطبى الأنيق فوق أنفه ، وقال :

- لا يا عزيزتى .. لست أحب حياة الأبراج العالية .. سأعمل فى مستشفيات الحكومة.

أدهشنى موقفه ، وأفزعنى فى الحقيقة ، فقضيت ساعة كاملة ، فى محاولة لإقناعه بالعدول عن رأيه هذا ، ولكنه أتحفنى بمحاضرة طويلة عن الشعب، والفقراء، وحتمية تقديم يد العون لبنى البشر ، حتى أخرسنى تماماً، وهو يختم محاضرته قائلاً :

– وهذا الموضوع غير قابل للمناقشة .. إنها مسألة مبدأ .

وهكذا ابتلعت لسانى ، ولم أعد لمناقشة الأمر ثانية ، حتى فوجئت به ذات يوم يقول بابتسامة واسعة عذبة :

– هل تعلمين ؟ .. أستاذ الجراحة معجب للغاية ببراعتى فى هذا المضمار.. لقد طلب منى بنفسه أن أتقدم للحصول على نيابة الجراحة العامة فى الجامعة .

وبقدر ما أدهشنى تراجعه ، أظهرت فرحتى وسعادتى ، وهنأته على ثقة رئيس القسم به ..

وتقدم بأوراق ترشيحه بالفعل ..

ورفض رئيس القسم ..

وكانت الصدمة ضخمة بالنسبة لخطيبى ، الذى ثار وهاج وماج ، وأعلن أنه أحق أفراد دفعته بالحصول على نيابة الجراحة العامة، وأنه لن يتنازل أبداً عن مستقبله فى الانضمام إلى هيئة التدريس !

ولكن رئيس القسم أصر على الرفض ..

ومع حالة الإحباط والانهيار ، التى أصابت خطيبى ، اقترحت عليه أن يتنازل عن نيابة الجراحة العامة ، وأن يقنع بنيابة التخدير أو الأشعة التشخيصية ، ولكنه هتف فى إباء :

– مستحيل .. الجراحة العامة وإلا فلا .. إنها مسألة مبدأ .

ولم يمض أسبوع واحد على حوارنا هذا ، وفى آخر يوم من أيام الترشيح لنيابات الجامعة ، تقدم خطيبى بأوراقه إلى قسم التخدير ..

وحصل على النيابة ..

نيابة التخدير بالطبع ..

وأثبت خطيبى العزيز تفوقه وبراعته ، فحصل على شهادة (الماجستير) فى فترة قياسية ، وأصبح إخصائياً فى مجاله ..

ثم حصل على شهادة الدكتوراه ، قبل زملائه بعام كامل ..

وأصبحت أسعد فتاة فى الدنيا كلها ..

ولكن كان ينقصنا أمر هام ..

أن نتزوج ..

وعندما طرحت الفكرة على استحياء ، انهمك هو فى تفكير عميق ، ثم قال:

– هل تعلمين .. لابد لى من زيادة دخلنا ، قبل أن نقدم على الزواج ، حتى أضمن لك حياة هانئة ، بلا متاعب أو عذاب .

سألته عندئذ فى اهتمام :

– ما رأيك فى البحث عن عقد جيّد ، فى واحدة من دول البترول ؟

حدق فى وجهى بدهشة أقرب إلى الذهول ، وصرخ فى لهجة تحار فى تحديد مغزاها، ما بين الغضب والاستنكار .

– دول البترول ؟! مستحيل !

قلت فى حذر :

– ولم لا ؟ .. ستعمل هناك لعام أو عامين ثم تعود إلى هنا ، و...

قاطعنى فى صرامة :

– قلت مستحيل ! .. ألا تعلمين ما يطلقونه على دول البترول هذه ؟.. إنهم يسمونها بلاد النفط والمهانة .. هل تعلمين لماذا ؟ ..

ومرة أخرى ألقى على مسامعى محاضرة طويلة ، استمعت إليها فى صمت، مكتفية بإيماءات مهذبة من رأسى ، وأنهاها كعادته بالعبارة التقليدية :

- إنها مسألة مبدأ .

وحاول بالفعل أن يزيد من دخله ، بالعمل المتواصل ، والمثابرة ، والكفـــاح، والنشاط، والحماس ..

ثم تعلم الدرس الأول من دروس الحياة ..

إن كل هذا لا يكفى ..

الله (سبحانه وتعالى) وحده يمنح الرزق لمن يشاء من عباده ..

ثم إن تخصصه مرهق ..

إنه لا يستطيع العمل وحده ، ولابد له من التعامل مع جراح متخصص..

وهذا يقلقه ..

وبعد شهر واحد من العمل المتواصل ، منذ الصباح الباكر ، وحتى منتصـــف الليل، اختفى خطيبى بضعة أيام ، ثم فاجأنى بزيارته ، وهو يقول فى حماس :

- لقد قدمت أوراقى لمكتب التوظيف السعودى .. إنهم يطلبون أطباء تخدير.

هتفت فى سعادة ، دون أن أناقشه فى أمر رفضه السابق :

- عظيم .. خطوة ممتازة ..

ثم سألته فى لهفة :

- هل ذكروا شيئا عن الأجر ؟

هز رأسه نفيا ، وقال بابتسامة عريضة :

- كلا .. ولكننى لن أقبل أقل من سبعة آلاف ريال .. إنها مسألة مبدأ..

ألم أقل لكم : إنه شاب غير عادى ؟!

***

قطرات العطش

استغرق (إسماعيل) فى النوم ، حتى ساعة متأخرة كعادته ، واستيقظ مع دقات الساعة الثانية ظهراً ، فتثاءب فى فراشه ، ومرر أصابعه فى شعره بتكاسل واضح، قبل أن يمد يده إلى علبة سجائره المجاورة للفراش ، فيلتقط منها سيجارة، ويشعلها بعينين نصف مغمضتين ، ثم ينفث دخانها فى عمق ، قبل حتى أن ينهض ..

وفى خمول ، راح يسترجع ذكريات سهرة البارحة ..

وارتسمت على شفتيه ابتسامة عابثة جذلة ، وهو يغمغم :

- يا لها من ليلة !

لم تكن السهرة تختلف عن غيرها من السهرات ، التى اعتاد قضاءها خارج شقته الصغيرة، التى صنع منها مسكناً ، ومرسماً ، ومقهى ، وصالة عرض سينمائى، ولكنه كان - كعادته - يهوى الاستمتاع بكل لحظة فى حياته ، ويبغض الاستكانة وحياة الهدوء والاستقرار ..

ولهذا السبب بالذات تزوج مرتين ..

وفشل فى زيجتيه ..

إنه يكره تلك القيود ، التى يفرضها الزواج على حياة فنان مثله ..

يكره المطالب والمسئوليات والهموم ..

وهو يبذل كل ما بوسعه للفرار منها ..

هكذا هو ..

طائر طليق ، بلا رابط أو مانع ..

منذ حداثته وهو يهوى هذا النمط من الحياة ، ويقاتل فى سبيل الظفر به..

إنه لا يدرى حتى لماذا تورط فى الزواج ؟!..

لماذا جال بخاطره يوما أن يصنع لنفسه أسرة ، فيها زوجة وأبناء، لهم مطالب وهموم ومسئوليات ؟!..

لقد كان مجنوناً حتماً ، عندما فعلها ..

هكذا يقول لنفسه ، كلما تذكر أسرته ، التى انعزل عنها ، وتركها تواجه وحدها مسئوليات الحياة بعيداً عنه ..

وحتى زواجه الثانى ، لم يكن موفقاً .. صحيح أنه اختار زوجة من طراز خاص، لا يفرض عليه أى هموم أو مسئوليات أو التزامات ..

ولكنها زوجة ..

وهذا وحده يكفى ليملأ نفسه بالملل ..

وفى هدوء ، راح (إسماعيل) يجتر سيجارته وذكرياته القريبة ، وتلك الابتسامة العابثة تبدو وكأنها محفورة على وجهه وشفتيه ، و ...

وفجأة ، ارتفع رنين الهاتف ..

لم يكن ذلك أمراً غير عادى ، فقد اعتاد استقبال عشرات المكالمات الهاتفية فى اليوم الواحد ، قبل أن يترك لجهاز الرد الآلى مهمة استقبال العشرات الأخرى، ولكنه لم يدر لماذا اختطف السماعة فى لهفة هذه المرة ، وقال :

- من المتحدث ؟

ونقلت إليه أسلاك الهاتف صوتاً رقيقاً ، أشبه بالهمس ، يقول :

- أنا (روحية) يا (إسماعيل) .

ولسبب ما ، سرت فى جسده قشعريرة قوية ، لدى سماعه الاسم ، على الرغم من أنه لا يذكر قط ، أنه قد التقى فى الآونة الأخيرة ، أو حتى منذ انتقاله من (الإسماعيلية) إلى (القاهرة) بأية امرأة تحمل اسم (روحية) ، فتساءل :

- (روحية) من ؟

أجابه الصوت الهامس الرقيق ..

- (روحية عبد الغنى) .

وفى هذه المرة ، كانت القشعريرة باردة كالثلج ..

وكان القلب يخفق فى عنف ..

(روحية عبد الغنى) ؟! ..

يا لها من ذكريات !..

ذكريات ربع قرن مضى ..

ذكريات الصبا والشباب ..

وفى لحظة واحدة ، وقبل أن ينطق بكلمة واحدة ، كانت ذكرياته تنطلق بعيداً. بعيداً جداً ..

* * *

" (إسماعيل) .. ماذا تريد منى بالضبط ؟ " ..

ألقت (روحية) هذه العبارة على مسامعه ، وهما يسيران جنباً إلى جنب ، وأصابعه تحتضن أصابعها ، وتبثها ولهه وغرامة ، أمام شاطئ القناة ، فى لحظة الغروب ، فالتفت إليها فى ضيق ، وقال :

- لماذا تفسدين هذه اللحظة الجميلة ؟

قالت فى إصرار :

- أريد أن أعرف حقيقة صلتك بى .

شعر لحظتها بالضجر والملل ، ولكنه أجاب بسرعة :

- أنا أحبك .

سألته على الفور :

- وماذا بعد ؟

أدهشه السؤال ، وأثار حيرته ، فغمغم وهو يتطلع إلى وجهها الجميل، وملامحها الرقيقة الفاتنة :

- لا يوجد بعد .. أنا أحبك ، وهذا يكفى .

تملصت بأصابعها الصغيرة من أصابعه ، وقالت فى غضب :

- كلا .. هذا لا يكفى .

سألها فى حيرة :

- ماذا تريدين إذن ؟

ترددت لحظة ، ثم مالت عليه ، قائلة :

- المفترض أن تتقدم لخطبتى .

حدق فى وجهها لحظة بدهشة ، وكأنه لم يفهم ما تعنيه ، ثم انفجـــر فجـأة ضاحكاً، فهتفت هى فى غضب :

- ما المضحك فى هذا ؟

قال ، دون أن يتوقف عن الضحك :

- المضحك فى هذا أنك فى السادسة عشرة من عمرك ، وأنا ما زلت طالبـــاً فى كلية الفنون الجميلة .

قالت فى حدة :

- وماذا فى هذا ؟ .. ابنة عمى فى مثل عمرى ، وقد تقدم لخطبتها شاب فى السنة النهائية بكلية الطب ، وهما خطيبان الآن .

قال بسرعة :

- بل قولى : هما أحمقان .. لماذا يقيد الإنسان نفسه بأمر كهذا ، وهو فـــى ريعان الصبا .

هتفت محنقة :

- لأن كل منهما يحب الآخر .

هز كتفيه ، وقال فى لا مبالاة :

- وماذا فى هذا ؟ .. أنت وأنا نحب بعضنا أيضا ، ولكن هذا ليـــس مـــبررا للخطبة.

صاحت غاضبة :

- هكذا ؟! .. هذا رأيك إذن ؟

أومأ برأسه ، وهو يقول مصطنعاً الوقار :

- هذا رأى كل إنسان عاقل .

انعقد حاجباها الجميلان ، وهى تقول :

- احتفظ برأيك لنفسك إذن ، واكتف بحبك .

صاح بها ، وهى تبتعد غاضبة :

- هل سنلتقى غداً ؟

صرخت فى ثورة :

- لن نلتقى أبداً .. هل تفهم ؟ .. أبداً ..

* * *

" (إسماعيل) . هل تسمعنى ؟ .. هل تسمعنى يا (إسماعيل) ؟ .. " .

انتزعه صوتها من ذكرياته البعيدة ، فهب جالساً على فراشه ، وهتف بها فى لهفة حقيقية :

- من أين تتحدثين يا (روحية) ؟

أجابته فى هدوء عجيب :

- من (السويس) .

قال فى سعادة ، أدهشه أنها نابعة من أعماق قلبه :

- لقد أوحشتنى كثيرا .. إننا لم نلتق منذ عشرين عاما .

أجابته فى بساطة :

- بل تسعة عشر عاما وستة أشهر وثلاثة أيام .

وخفق قلبه فى لهفة وسعادة ..

إذن فهى لم تنس هذا قط ..

لم تنس حبها وسعادتها ..

لم تنس حتى لحظة فراقهما ..

وأدهشه أن رقص قلبه طرباً ! .

لماذا يشعر بكل هذه السعادة فى أعماقه ، وهو يسمع صوتها ؟! .

ألا يزال حبها باقياً فى قلبه ؟! ..

أمازال عشقها كامناً فى ثنايا عقله ؟! ..

أتاه الجواب على الفور بالإيجاب ..

أتاه من عقله ، وقلبه ، وكيانه ، ووجدانه ..

بالتأكيد زال يحبها ..

ولم يحب سواها ..

لقد خدع نفسه ، عندما أوهمها بأنه نسيها ..

كيف يمكن هذا ؟ ..

كيف يمكن للمرء أن ينسى نفسه ، وروحه ، وكيانه ؟! ..

لقد كانت (روحية) بالنسبة إليه ، هى كل هذا ..

هى نفسه ..

وروحه ..

وكيانه ..

كان يذوب مع ابتسامتها ، ويركع أمام ضحكتها ، وينهار مع دموعها ..

ولكن هل كانت هى أيضاً تحبه ؟! ..

إنه لم ينس سعادتها بقربه ، ولا فرحتها بلقائه ، ولا ..

ولا طعنتها له ..

لقد انتقمت منه شر انتقام ، عندما رفض التقدم منها ..

لم تقتله ، أو تضربه ، أو تسبه ..

كل ما فعلته ، هو أن قبلت خطبة شخص آخر ..

ولم يكن الشخص العادى ..

بل كان أقرب الناس إليه ..

أقربهم على الإطلاق ..

* * *

استوقفها غاضبا ، وهى فى طريقها للمدرسة ، وقال فى حدة :

- لماذا فعلت هذه ؟

ابتسمت ابتسامة تجمع ما بين الظفر والسخرية ، وهى تقول :

- فعلت ماذا ؟

قال فى غضب :

- لماذا وافقت على هذه الخطبة ؟

تطلعت إلى دبلة الخطوبة الذهبية ، التى تزين إصبعها ، وقالت فى دلال خبيث:

- إنه شخص يحبنى ، ويرغب فى الارتباط بى رسميا ، فلماذا أرفضه ؟

قال فى حدة :

- كان المفروض أن ترفضى هذا الشخص بالذات .

هزت كتفيها فى استهتار :

- ولماذا ؟

هتف :

- لأنه أخى .

أطلقت ضحكة عابثة ، وقالت :

- وما المانع ؟

ثم استطردت فى لهجة استفزازية :

– لقد كان أكثر شجاعة منك ، وأكثر وضوحا ، أحبنـــى ، فتقـدم لخطبتـى ..هكذا بكل بساطة .

قال فى مرارة :

– أنت دفعته لحبك .. أتظنين أننى لم ألمح حركاتك ولمزاتك ؟

أجابته فى حنق :

– ولماذا لاحظت هذا بالذات ؟ .. كنت أظنك عديم الملاحظة .

صاح بها :

– ما الذى تعنينه بهذا ؟

هزت كتفيها مرة أخرى فى استهتار ، وقالت :

– فسرها كما يحلو لك .

وغادرت المكان فى دلال واثق مزهو ، وتركته خلفها يغلى ..

وبشدة ..

* * *

هتف فجأة :

– كان أخى يا (روحية) .

نقلت إليه أسلاك الهاتف حيرتها ، وهى تقول :

– أخوك من ؟!

أجابها فى حدة :

– أخى (محمود) – رحمه الله – لقد استخدمته لإذلالى .. خدعتنا معا .. هو وأنا.

صمتت طويلا ، ثم قالت :

– أما زلت تذكر هذا ؟

قال فى عصبية :

– وكيف أنساه ؟! .. لقد جرحت قلبين دون رحمة .

عادت إلى صمتها لحظات أخرى طويلة ، حتى أنه قال :

– أما زلت تستمعين ؟

أجابته فى اقتضاب رصين :

– نعم .

ثم أضافت فى سرعة :

– وأنا أعترف بخطئى هذا .. لقد كنت مجرمة ومستهترة ، عندما فكرت فى إثارة غيرتك ، عن طريق قبول خطبة أخيك (رحمه الله) .

أدهشه قولها هذا ، وهى التى لم تعترف بخطإ فـــى حياتـــها قـــط ، فـــارتبك وغمغم:

– كنا مراهقين حينذاك .

قالت فى هدوء :

– ولكن (محمود) كان أكبر سنا ، وأكثر عقلا ورصانة ، ولـــهذا حـــدث مـــا حدث.

سألها فى حيرة :

– وما الذى حدث ؟

صمتت لحظات ، ثم قالت :

– سأخبرك ماذا حدث يا (إسماعيل) .. سأخبرك بالســـر الـــذى أخفيـــه فـــى صدرى، أكثر من عشرين عاما .

وتحدثت إليه طويلا ..

* * *

كانا يجلسان فى ذلك (الكازينو) ، على شاطئ القناة ، عندما سألها (محمود) فجأة، ودون مقدمات :

- منذ متى تحبين (إسماعيل) ؟!

ارتبكت فى شدة ، واضطربت وهى تقول :

- من وضع هذه الفكرة السخيفة فى رأسك ؟

ابتسم (محمود) فى هدوء حزين ، وهو يجيبها :

- رأسى نفسه .

ثم مال نحوها ، مستطردا فى أسى :

- إننى لست غبيا يا (روحية) .. ولست غرا ساذجا أيضا .. لقد لاحظت نظراتك إلى (إسماعيل) ، ونظراته إليك ، ولست أحتاج إلى عبقرية (أينشتين) لأدرك أن كلا منكما يحب الآخر .

خفضت عينيها فى استسلام أشبه بالاعتراف ، فتراجع هو فى مقعده ، وتابع:

- كل ما أريد أن أعرفه هو : متى بدأ هذا الحب .. قبل أم بعد خطبتنا ؟!

أجابته فى خجل :

- قبلها بكثير .

بدا عليه الضيق ، وهو يقول :

- لماذا قبلت خطبتى إذن ؟ .. بل لماذا ألقيت شباكك حولى ، حتى وقعت فى حبك؟

ترقرقت فى عينيها دمعة كبيرة ، وهى تقول :

- أردت إثارة غيرته .

هتف مستنكرا :

- فقط ؟!

ثم خفض عينيه ، واستغرق فى التفكير لحظات ، قبل أن يقول فى أسى :

- لقد وضعتنا جميعا فى وضع لا نحسد عليه يا (روحية) ، ولكن لدى وسيلة لحل هذه المشكلة .

سألته فى لهفة :

- كيف ؟

أجاب فى حزم :

- سنفسخ خطبتنا .

ترددت لحظة ، ثم سألته :

- أتظن هذا يكفى ؟

أجابها بسرعة :

- كلا .. ولكن هناك إجراء آخر .

وخفض عينيه لحظة ، ثم عاد يرفعهما إليها ، قائلا :

- سأغادر (الإسماعيلية) نهائيا .. سأحيا فى (القاهرة) .

شحب وجهها ، وهى تقول :

- إلى هذا الحد .. هل اضطرك موقفى إلى ..

قاطعها قبل أن تكمل :

- لا .. لا تضعى هذه الفكرة فى رأسك أبدا .. إنها فكرة قديمة ، تلح فى ذهنى منذ زمن ، ولكن هذا الموقف ساعدنى على حسم أمرى بشأنها .

قالت مرتبكة :

- هل تريد الهجرة إلى (القاهرة) ؟

ابتسم وقال فى حزن :

- لن أجد فرصتى الحقيقية سوى هناك .. أنا أكتب المسرحيات كما تعلمين، ولن أجد مجالا لنشرها وانتشارها إلا فى (القاهرة) .

وربت على يدها فى حنان ، مضيفا :

- الوداع يا (روحية) .. لن أنساك .. لن أنساك أبدا .

* * *

اغرورقت عينا (إسماعيل) بالدموع ، وهو يقول :

- إذن فقد كنت - دون أن أدرى - أحد أسباب رحيل (محمود) (رحمه الله) إلى هنا .. يا لسخرية القدر!

قالت فى خفوت :

- ولماذا تشعر بالأسى لهذا ؟ .. لقد أصبح واحدا من أشهر وأعظم كتاب المسرح فى (القاهرة) .

قال بصوت أقرب إلى البكاء :

- ومات فيها أيضا .

أجابته فى خشوع أدهشه :

- إنه قدره .. وما تدرى نفس بأى أرض تموت .

ألقى دهشته جانبا فى سرعة ، وقال :

- أتعلمين أنه لم يخبرنى بحديثكما هذا قط ؟

غمغمت :

- أعلم هذا .

تابع وكأنه لم يسمعها :

- لقد فسخ خطبتكما ، وقال : إنكما غير متوافقين ، ثم رحل إلى (القاهرة)، وعاش فيها طيلة عمره ، دون أن يكشف السر .

قالت فى خفوت :

- كان رجلا عظيما .

أجابها فى حماس :

- إنه مثلى الأعلى .. لقد عشقت رجولته وشهامته وفكره منذ حداثتى، وهمت بها فى صباى ، وعبدتها فى شبابى .

قالت :

- ولكنك - وعلى الرغم من هذا - لم تكتسب الكثير منه .. لقد كان هو رب أسرة هادئة مستقرة .

قال فى أسى :

- وأنا حاولت أن أصبح كذلك .

قالت فى سرعة :

- وفشلت .

تنهد ، وقال :

- لم أحتمل الزواج .

أجابته :

- بل لم تحب زوجتيك بالقدر الكافى .

صمت بضع لحظات ، ليهضم عبارتها ، قبل أن يقول :

- ربما كان هذا صحيحا .

وران عليهما الصمت لحظات أخرى طويلة ، قطعتها هى قائلة :

- كنت أتصور أننا سنعود لبعضنا ، فور فسخ خطبتى ، ولكن هذا لم يحدث.

قال :

- كان ينبغى ألا تتوقعى هذا .

سألته :

- لماذا ؟

مال إلى الصمت لحظة أخرى ، ثم قال :

- لأن الأمر كان مستحيلا .. مستحيلا بالفعل .

وعاد بذاكرته إلى الوراء ..

* * *

ابتسمت (روحية) فى دلال ، وألقت ضفيرتها السوداء الطويلة أمام صدرهـــا، وراحت تداعبها بأصابعها ، وهى تقول :

- كانت هذه النهاية متوقعة .

سألها (إسماعيل) فى خشونة :

- أية نهاية ؟

تجاهلت خشونته ، وهى تقول :

- نهاية علاقتى بأخيك (محمود) .. كلانا لم يكن يصلح للآخر ، ومن الطبيعى أن يتم فسخ خطبتنا .

تمتم فى عصبية :

- كنت أتوقع هذا منذ البداية .

ضحكت فى ثقة ، وقالت :

- بل قل ، كنت تتمناه .

صاح بها غاضبا :

- ماذا تقولين يا (روحية) ؟! كيف أتمنى أن يحطم قلب أخى هكذا ؟

قالت فى حدة :

- لا تخدع نفسك ، لمجرد أنك تخشى الاعتراف بغيرتك من شقيقك ..نعـــم.. كنت تتمنى أن يتم فسخ خطبتنا ، حتى أعود إليك .. قلها ولا تخـــف .. اعـــترف بالحقيقة.

صرخ :

- هذه ليست حقيقة .. أنت تعرفين كم أحب (محمود) .

قالت فى عناد :

- وأنت تعرف كم تحبنى .

صمت لحظات ، وهو يتطلع إليها فى توتر ، ثم أشاح بوجهه قائلا :

- كان هذا فيما مضى .

هتفت متحدية :

- هل تراهن ؟ .. إنك ما زلت تحبنى ، حتى هذه اللحظة .. كل شـــئ فيـك يشف عن هذا.. نظراتك .. خلجاتك .. حتـــى محـــاولات الفـــرار مـــن نظراتـــى المباشرة.. أنا أفهمك جيدا يا (إسماعيل) ، ولا أحد يفهمك مثلى .

صاح فى مرارة :

- فليكن .. سأعترف أننى أحبك .. أى فارق يصنعه هذا ؟

تألقت عيناها فى ظفر ، وهى تقول :

- فارق ضخم .. على الأقل ، نستطيع أن نواصل قصة حبنا .

هتف بسرعة واستنكار :

- مستحيل !

انعقد حاجباها فى غضب ، وقالت :

- لماذا مستحيل ؟

بدا الارتباك والحيرة على وجهه لحظات ، ثم قال :

- لأن (محمود) يحبك .

قالت فى حدة :

- تقصد كان يحبنى .

أجاب فى مرارة :

- بل يحبك .. ما زال يحبك .. لقد قرأت هذا فـــى عينيـــه .. فـــى ارتجافـــة شفتيه، وهو يخبرنا بفسخ خطبتكما ، فى دمعة حزن ، لمحتها تتسلل من خلـــف أسوار عينيه، عندما تصورت أن أحدا منا لا يراقبها .. إنه يحبك يا (روحية) .

صمتت لحظات مبهوتة ، ثم قالت :

– ليس هذا ذنبى .

ابتسم فى سخرية حزينة ، وهو يقول :

– ذنب من إذن ؟!

بدأت ثقتها فى نفسها تهتز ، وتوترت كثيرا ، وهى تقول :

– اسمع يا (إسماعيل) .. لا داعى لأن نغرق أنفسنا فى عقدة ذنب لا تنتهى، ولا طائل منها .. دعنا نواجه الأمور بواقعية وعقلانية .. أنت تحبنى وأنا أحبك، فلماذا نفترق .

قال فى حزم :

– لأن أخى لن يحتمل أن نلتقى .

صاحت فى عصبية :

– ألا يمكنك اتخاذ قرار واحد فى حياتك كلها دون التفكير فى أخيك ؟

أجابها فى عناد :

– كلا .. لا يمكننى هذا .

ثم استطرد فى حزم :

– ثم إننى لن أبقى هنا .. سأرحل إلى (القاهرة) .

اتسعت عيناها لحظة فى ارتياع ، ثم لم يلبث حاجباها أن انعقدا فى شدة، وهى تقول :

– تماما مثل أخيك .. أنت لم تعد تمتلك شخصية مستقلة .. لقد صرت مجرد ظل له.. أنت مجرد ظل .. هل تفهم ؟ .. مجرد ظل .

تجاهل صيحاتها الغاضبة ، وهو يقول :

– الوداع يا (روحية) .. أظن أننا لن نلتقى مرة أخرى .

صرخت ثائرة :

– ومن يرغب فى رؤيتك .. هيا .. ارحل .. ارحل ولا تعد أبدا .. لا أريد أن أراك، حتى آخر لحظة فى حياتى .. لا أريد أن أراك .

وانفجرت باكية فى مرارة ، ولكنه لم يتوقف ..

لقد واصل ابتعاده ، ورحل ..

رحل إلى (القاهرة) ..

* * *

تنهدت (روحية) فى عمق ، وقالت :

– تخليت عنى يا (إسماعيل) .. تركتنى فى (الإسماعيلية) ، وذهبت لتحيا إلى جوار شقيقك فى (القاهرة) .

شاركها تنهيدتها ، وقال :

– لم تكن أياما هينة يا (روحية) .. كانت فترة كفاح مريرة .. عانيت فيها الكثير، وتعذبت أكثر ، حتى أمكننى أن أشق طريقى فى عالم النجاح هنا .

قالت فى هدوء :

– من المؤكد أن (محمود) ساعدك كثيرا .

أجاب وهو يبتسم فى شرود :

– بالتأكيد .. ولكن ليس على النحو الذى تتصورينه .. لقد كان يكره الوساطات والمحسوبيات ، ولكن كفاحه وحماسه ، أشعلا فى نفسى جذوة النشاط والحماس، فانطلقت أصنع نفسى بنفسى ، متحديا كل الصعاب ، ومتجاوزا كل العقبات.

قالت فى بساطة :

– وأنت الآن واحد من المشاهير .

غمغم :

– لم يكن ذلك سهلا .

ثم سألها فى فضول :

– ولكن ماذا عنك يا (روحية) ؟ .. ماذا فعلت بعد رحيلى ؟

صمتت لحظة ، ثم أجابت :

– تعذبت كثيرا .. وبكيت أكثر .. كان قلبى يكاد يزحف لرؤيتك ، ولكن كرامتى تجبره على أن يشيح بوجهه عنك .. ثم جاءت لحظة إنهار فيها كل شئ فى أعماقى، وقررت الانتحار .

هتف مستنكرا :

– الانتحار ؟! .. أنت تفكرين فى الانتحار يا (روحية) ؟

قالت :

– نعم .. وكان هذا أيضا بسببك ، ولقد انتحرت بالفعل .

هتف :

– حقا ؟!

أجابته على الفور :

– نعم .. ولكنه كان انتحارا من نوع آخر .

وصمتت لحظة ، قبل أن تستطرد :

– تزوجت .

وخفق قلبه فى قوة .

* * *

".. (إسماعيل) تزوج ؟! .. "

هتفت (روحية) بالعبارة فى ذهول ، وتركت جسدها يسقط فوق أقرب مقعد إليها، وتجمعت فى عينيها دمعة كبيرة ، وهى تردد :

– كيف ؟ .. إنه يكره الزواج والارتباط .. كيف فعلها ؟!

مصمصت أمها شفتيها ، وقالت :

– كما يفعلها كل الرجال .. ألم أقل لك ألف مرة ؟! .. كل الرجال يتزوجون، مهما أكدوا عدم عزمهم على هذا ؟ .. الأمر يتوقف فقط على اللحظة ، التى يلتقون فيها بالمرأة الذكية ، التى تنجح فى الإيقاع بهم ، واقتناصهم فى مصيدة الزواج.

انحدرت الدمعة الكبيرة على وجه (روحية) ، وتجمعت أخرى أكبر حجما فى قلبها.

كانت تشعر أن زواجه قد طعنها فى الصميم ..

فى أعمال كرامتها ..

إذن فقد كسر قاعدة حياته ..

ولكن مع أخرى ..

لم تكن تتصور أو تتوقع هذا أبدا ..

صحيح أنها لم تلتق به منذ عامين ، عندما رحل إلى (القاهرة) ، ورفض العودة مرة أخرى إلى مسقط رأسه ، ولكنها ظلت تحتفظ بحبه فى قلبها ..

وكانت تظن أنه يبادلها الشعور ..

وحتى مع يقينها بأنه يرفض فكرة الزواج ، لم تكن تشعر بالحزن أو الإحباط..

يكفيها أنه لن يكون لسواها ..

ولكنه فعلها ..

" بمن تزوج ؟ .. "

فوجئت بنفسها تلقى السؤال ، وقبل أن تستنكره ، سمعت أمها تجيب :

– زميلة له ، فى كلية الفنون الجميلة .. يبدو أنه حب قديم .

وعادت تمصمص شفتيها ، مستطردة :

– فتاة ذكية ، أوقعته فى فخها ، و ...

صاحت (روحية) فى عصبية :

– لماذا تتحدثين عن الزواج دائما هكذا ؟! .. إنه ليس فخا أو مصيدة ، تصنعها المرأة لتوقع بها رجلا فى شباكها .. إنه علاقة عظيمة ، تقوم على المودة والرحمة .. تتويج لحب جميل بين طرفين ، ليسكن كل منهما إلى الآخر.

قالت الأم ساخرة :

– لم نسمع هذا فى شبابنا .. كل ما عرفناه عن الزواج هو أنه ستر للفتاة، ووقاية لها من الخطأ .

صاحت (روحية) فى مرارة :

– فكرة سخيفة ومتخلفة .. لماذا لا ترجعون إلى ما يقول الدين عنه ؟

قالت أمها فى صرامة :

– ولماذا لا ترجعين أنت إلى ما تقوله كل الأديان ، بشأن معاملة الأبوين ؟

خفضت (روحية) عينيها ، وقالت :

– أنا آسفة .. لم أكن أقصد هذا .

تنهدت الأم ، وقالت :

– أعلم أنك حزينة ، لأن هذا النذل خدعك وأهملك .. ولكنك جميلة الجميلات فى (الإسماعيلية) كلها ، وألف من يتمنى الزواج منك .

قالت فى دهشة :

– الزواج ؟!

هتفت أمها :

– نعم .. الزواج .. الزواج ممن هو أفضل منه ألف مرة .. هل نسيت كيف بذل الدكتور (حسين) جهده لإقناعك بالزواج منه ؟ .. والمهندس (عاصم) .. والأستاذ (علوان) المحامى ، و ...

قاطعتها (روحية) :

– كفى يا أمى .. أرجوك .

ولكن الأم تابعت :

– الدكتور (حسين) بالذات ، ما زال يلح فى الأمر .. ما رأيك ؟! هل أبلغه بموافقتك؟! .

صمتت (روحية) طويلا ، وعقلها يمتزج بمشاعرها ، ويصرخ ..

نعم .. ولم لا ؟ ..

(إسماعيل) لم يعد لها ..

و (حسين) يطلبها فى إلحاح ..

إنها معادلة متوازنة ..

ومنطقية ..

ولم تستغرق أكثر من لحظات لحسم أمرها ..

كانت تشعر أن زواجها سيكون طعنة عكسية ، ترد بها الكيل لـ(إسماعيل).. طعنة تسترد بها كرامتها الذبيحة ..

وفى حزم ، أجابت :

– نعم يا أمى .. أخبريه أننى موافقة ..

وتم الزواج ..

* * *

تنهد (إسماعيل) فى عمق ، وهو يستعيد ذكريات زواجه الأول ، وقال :

– كلانا تسرع كثيرا يا (روحية) .. أنا تزوجت امـــرأة لا تفـــهمنى ، وأنـــت تزوجت رجلا لا يمكن أن يفهمك .

قالت فى هدوء عجيب :

– إنه نصيبنا .. كل منا نال ما هو مقدر له .

قال فى أسف :

– ولكننى لم أستطع التعايش قط مع (ثريا) .. طبيعتنا يتعارض بعضها مـــع البعض.

تماما .. صحيح أنها امرأة طيبة القلب ، مخلصة ، ولكنها أبدا لم تفهمنى.

قالت (روحية) :

– ربما أنت من لم يفهمها .

كاد يعترض فى البداية ، إلا أن عقله درس الأمر إلى حد مـــا ، وقـــال فـــى النهاية:

– نعم .. ربما .

ثم أضاف بسرعة :

– ولكننا انفصلنا فى النهاية على الرغم من إنجابنا طفل وطفلة .. لم يمكننـــا الاستمرار معا ، على الرغم من وجودهما .

خيل إليه أنه يرى ابتسامتها عبر الهاتف ، وهى تقول :

– من العسير أن تجد من يحتمل طبيعتك البرية .

ثم تابعت فى صوت يحمل رنة أسى :

– أنا أيضا أسأت التعامل مع زوجى .. كنت أتعامل معه بشخصية مزدوجـــة، كما لو أننى مصابة بانفصام نفسى .. كثيرا ما أحاول منحـــه الحـــب والحنـــان والرعاية اللازمة ، من الزوجة لزوجها ، ولكننى ما إن أبدأ فى التعـــامل معـــه، حتى يراودنى شعور بأنه السبب فى افتراقنا ، فأغضب فى أعماقى ، وأصنع معه

فيها معركة ضخمة يدفع هو ثمنها فى عـــالم الواقـــع ، دون أن يـــدرى ســـببا لعصبيتى وعنفى وتوترى .. حتى عندما يغمرنى بحبه وحنانه وهدايـــاه ، كنـــت أقابل كل هذا بالازدراء، أو السخرية ، أو العنف ..

سألها فى حذر :

– وماذا عنكما الآن ؟

طال صمتها هذه المرة ، حتى كاد يتجاوز الدقيقة الكاملة ، قبل أن تقول :

– إنه لم يعد هنا .

سألها فى اهتمام :

– ماذا تعنين ؟ .. هل انفصلتما ؟

جاء صوتها حزينا ، وهى تقول :

– كان انفصالا من طرف واحد .. لقد مات .

فاجأه القول ، فصمت لحظة بدوره ، ثم غمغم

– يؤسفنى سماع هذا .

قالت بسرعة مدهشة :

– الموت حقيقة لا جدال فيها ، على رءوس العباد .

صمت كلاهما هذه المرة ، بعد عبارتها ، ثم قطع هو حبل الصمـــت ، وهـــو يقول:

– لقد تزوجت مرة ثانية ، ولكننى أيضا لم أشعر بالارتياح .

سألته :

– هل كانت تشبه (ثريا) ؟

مط شفتيه ، وقال :

– بل تختلف عنها تمام الاختلاف ، فى كل الأمور ، قلبا وقالبا ، ولكننى لست أدرى لماذا لم أحتمل الحياة معها أيضا .

قالت (روحية) :

- طبيعتك لا تميل إلى هذا .

طال صمتها بعد عبارتها ..

وطال ..

وطال ..

كان من الواضح أن كلا منهما يستعيد ذكريات ومشاعر ، طمرتها السنون وأخمدتها الأيام ..

ولكن (إسماعيل) لم يكن يستعيد ذكرياته معها فحسب ..

بل كان يستعيد حياته كلها ..

لم يدر ما الذى فعلته فيه محادثتها الهاتفية بالتحديد ، ولكنه فجأة شعر وكأن حياته كلها كانت خاوية ، فارغة ، لا تعنى شيئا له ، أو للآخرين ..

حياته معها فقط ، هى التى تستحق الذكر ..

وذكرياته معها وحدها تستحق التسجيل والاسترجاع ..

فجأة ، شعر أنه لن يستطيع العيش دونها ..

لن يصبح للحياة طعم ، لو رحلت ثانية ..

إن محادثتها الهاتفية هى قطرات الحب ، التى هبطت على صحراء حياته، فأنبتت فيها مرة أخرى بذور الحنان والسعادة ..

هى قطرات العشق ، التى روت خواءه وأنعشته ..

وبكل اللهفة فى أعماقه ، هتف :

- (روحية) .. هل تتزوجيننى ؟

جاوبه صمت مطبق منها ، فتابع فى انفعال :

- لقد أضعنا الكثير من العمر يا حبيبتى ، فدعينا لا نفقد ما تبقى منه.. لاتترددى.. لا تخافى .. إنها حياتنا يا (روحية) ، وسنحياها كما كان ينبغى أن نفعل من ربع قرن ..

مرة أخرى جاوبه صمتها ، ووجد عينيه تمتلآن بالدموع ، هو يتابع :

- أجيبى يا حبيبتى .. لا تصمتى هكذا .. إننى أحتاج إليك .. صدقينى .. إننى أشعر وكأننى كنت أنتظر محادثتك هذه منذ عشرين عاما يا (روحية) .. هل تسمعيننى؟

أتاه صوتها رصينا هادئا ، وهى تقول :

- (إسماعيل) .. إنك لم تسألنى ، لماذا اتصلت بك ، بعد كل هذه السنين ؟

قال فى لهفة :

- إنه الحنين يا (روحية) .. أليس كذلك ؟ .. الحب القديم يا حبيبتى .

قالت بعد لحظة من الصمت :

- بل هى محاولة لتطهير النفس يا (إسماعيل) .

بهت للعبارة ، وغمغم فى دهشة :

- تطهير ماذا ؟!

أجابته فى لهجة تحمل شيئا من الحزم :

- تطهير النفس يا (إسماعيل) .. لقد أخبرتك فى البداية أننى أتحدث إليك من (السويس) .. إننى أنتظر الباخرة ، التى ستقلنى مع عدد من الحجاج إلى (المملكة العربية السعودية) ، لأداء فريضة الحج .. إننى أشعر بالندم يا (إسماعيل) أشعر أننى المسئولة عن موت زوجى المسكين ، بكل الجفاء والبرود والمقت الذى عاملته به .. أنا المسئولة عن كل الحزن ، الذى ملأ قلبه ، وناء به حمله ، حتى سقط صريعا .. وأنت تحمل جزءا من المسئولية معى يا

(إسماعيل).. إننى لا أتهمك.. صدقنى .. لقد غفرت لك ، ولكل من أساء إلى فى حياتى كلها..

وكان على أن أبلغك هذا بنفسى ، حتى أشعر بالتطهر والارتياح .. إلى اللقاء يا(إسماعيل) .. بل وداعا .. وداعا إلى الأبد .

لم يقاطعها بحرف واحد ، وهى تلقى عباراتها الأخيرة ، وتجمدت كل مشاعره فى أعماقه ، وهو يستمع إليها ، حتى أنهت المحادثة ، وتردد فى أذنـــه صـــوت الهاتف الرتيب ..

ولثوان ، ظل يستمع إلى الهاتف فى صمت ذاهل ، ثـــم لـــم يلبـــث أن أعـــاد السماعة إلى موضعها فى بطء ، وعيناه تحدقان فيها فى شرود ..

وفجأة ، شعر أن حياته صارت أكثر خواء ، مما كانت عليه من قبل ..

لقد فقدت كل ما تحمله من أهداف ومعان ..

قطرات الحب ، التى منحته إياها (روحية) ، عبر أسلاك الهاتف ، لم ترو قلبه قط..

لقد زادته عطشا ..

بل حولته إلى صحراء جرداء ..

صحراء قاحلة موحشة مخيفة ..

وفى بطء ، عاد (إسماعيل) إلى فراشه ، ورقد فوقه صامتا ، وترك ذكرياتـــه تنطلق بعيدا ، ويمتزج بعضها بالبعض ، ثم تتهاوى فى فراغ بلا قرار ..

***

الزّهرة

" صباح الخير يا زهرتى الجميلة .. " ..

ارتسمت أعذب ابتسامة فى الوجود ، على شفتى (نجلاء) ، وهـــى تـــهمس بتحية الصباح لتلك الزهرة الحمراء المنفردة ، وسط حشد من النباتات الخضراء، التى تملأ شرفة منزلها ، والتقطت أصابعها الرقيقة رشاشة الميـــاه الصغـــيرة ، وأمالتها لتتناثر منها قطرات الماء العذب ، وتـــروى الزهـــرة الجميلـــة ، التـــى استقبلت الماء ببتلات متفتحة ، ومياسم متراقصـــة ، وكأنـــها تنتشـــى بحمّـــام الصباح، وتزهو بجمالها ورونقها ..

كانت زهرة من نوع خاص ، يندر أن ينمو ويتفتح فى إصيص زرع صغـــير، بعد أن اعتاد أن يحتل مكانة متميزة ، فى قلب الحدائق الغناء ..

وربما كان هذا مبعث فخر (نجلاء) ..

لقد حذرها الكثيرون ، وهى تبتاع بذرة الزهرة ، من أنها لن تنمو أبـــداً فـــى شرفة منزلها ..

حتى والدها ، المهندس الزراعى ، أبدى تشككه فى أن يحدث هذا ..

ولكن (نجلاء) أصرت ..

ومنذ اليوم الأول ، زرعت بذرتها ، وراحت ترويها بحبها ودلالها وعنايتـــها، قبل حتى أن تمنحها ماء الحياة ..

وانتظرت بشوق يفوق سنوات عمرها العشرين ، وهى تراقب سطح التـــربة فى لهفـــة ، وتـــواصل عنايتها ورعايتها للزهرة ، التى لم تعلـــن عـــن نموهـــا بعـــد..

ثم كان ذلك اليوم ..

كانت تنثر قطرات المطر على التربة ، عندمـــا لاحظـــت النبتـــة الخضـــراء الصغيرة، التى برزت منها ..

ولا أحد يمكنه أن يصف فرحتها يومئذ ..

لقد صرخت من فرط سعادتها ، وراحت تقفز فى الشرفة ، وتصفق بكفيها فى جذل فرح ، كما لو أنها عادت طفلة فى العاشرة من عمرها ، لـــم تنتبـــه إلـــى مبالغتها فى إظهار انفعالها ، إلا عندما وقع بصرها فجأة على (شريـــف) ، ابـــن الجيران، وهو يراقبها من نافذة حجرته ، ويبتسم ..

لحظتها ارتجف جسدها كله ، وجرت على أطراف أصابعها إلـــى حجرتـــها ، وأغلقتها خلفها ، وتركت قلبه يخفق بكل قوته ..

كيف نسيت أنه هناك ؟! ..

كيف لم تنتبه إلى ان اليوم يوافق إجازته الأسبوعية ، فأفرطت فى فرحتـــها، وتركت صوتها يبلغ أذنيه ؟!..

كيف نسيت أنه غارق فى حبها ، مثلما هى غارقة فى حبه ؟! ..

صحيح أنهما لم يلتقيا قط ، ولم يفصح أحدهما للآخر عن مكنون قلبه، إلا أن كلاً منهما لا يداخله أدنى شك فى شعور الآخر نحوه ..

يكفى ما يتبادلاه من نظرات ، وما يختلسانه من لحظات ، ليستشف كل منهما ما يحمله له الآخر ..

ثم إنه من السهل أن يفهم كل منهما الآخر ..

إنهما جاران منذ الطفولة ، والأسرتان تتبادلان التهنئة وعبارات المجاملـــة، فى الأعياد والمناسبات ، وإن لم تتصل تلك العلاقة قط ، إلى الحد الذى يحدث فيه تزاور من الجانبين ..

وهى تعرف أخلاق (شريف) جيدا ..

كل من فى الشارع يعرفها ..

إنه مثال للشاب الرصين المتزن المحترم ، الذى أنهى سنوات دراسته بتفوق معقول، ثم التحق بالعمل فى واحدة من شركات القطاع الخـــاص، التـــى قـــدرت

كفاءته، ووضعته فى مكانة مناسبة ، لم يكن من الممكن أن يبلغها فى شركـــات القطاع العام قبل عشرين عاماً على الأقل ..

وهى تعتقد أنه يستحق هذا ..

دائماً تعتقد أنه يستحق كل خير ..

هذا لأنها تهتم به كثيراً ..

أو بمعنى أدق ، تهيم به كثيراً ..

بل ربما اختارت تلك الشرفة بالذات ، لتزرع فيها زهرتها ، حتى تجد حجـــة تطل بها على حجرته ، فى المبنى المجاور ..

ولقد أحسنت الاختيار بالفعل ..

الزهرة أيضاً ارتاحت للشرفة ، وقررت أن تتخلى عن حذرها التقليدى ، وأن تنمو داخل ذلك الإصيص الصغير فى الشرفة ..

وبسرعة تحولت النبتة الصغيرة إلى نبات قوى ، برز من قمته برعم كبير، لم يلبث أن استدار وتكور ، وأعلن عن قرب مولد الزهرة الجميلة ..

وفى نفس اليوم ، الذى تقدم فيه (شريف) لخطبتها ، وقرأ فيه والدها الفاتحة مع والده ، تفتحت الزهرة ، وكأنها تشاركها فرحتها بزغرودة صامتة جميلة ..

وكانت الفرحة فرحتين كما يقولون ..

فى الصباح تحقق حلمها ، وتفتحت زهرتها ..

وفى المساء خفق قلبها ، وارتبطت بحبيبها (شريف) .

أخيرا أمكنها أن تعرفه عن قرب ..

ولقد غير هذا مشاعرها كثيرا ..

كانت قبل هذا تحبه ، أما الآن فهى تعشقه ..

إنه أروع مما قالوه عنه ..

إنسان مهذب متفتح ، رقيق ، حازم ، عاطفى ، متفهم ..

باختصار .. إنه حلم جميل لكل فتاة فى الدنيا ..

وعلى الرغم من حبها وعشقها له ، لم تنس (نجلاء) زهرتها قط ..

كانت تشعر بالفخر والسعادة لأنها أول من نجحت فى إقناع هذه الزهرة بأن تتفتح فى شرفة منزلية ..

كل زميلاتها حاولن ، وفشلن ..

كلهن بذلن غاية جهدهن ، لإنبات زهرة مثلها ، ولكنهن منين بالفشل الذريع..

وهذا يزيدها زهواً ..

إنها ترى نظرات الحسد فى عيونهن ، وهن يشاهدن زهرتها، وتسمع كلمات الحسرة التى لم ينطقن بها، وهن يتأملنها ..

المنطقة كلها أصبحت تحفظ ذلك المشهد ..

مشهد (نجلاء) ، وهى تروى زهرتها فى الصباح ، فى حنان بالغ ، وتهمس لها بعبارات رقيقة ، كما لو كانت ابنتها ..

الجميع صاروا يعرفون كم ترتبط بهذه الزهرة ..

وكم تحبها ..

حتى الزهرة نفسها ، بدت وكأنها عرفت هذا ولاحظته ..

لقد نمت بأوراق حمراء عريضة وكأنها تعلن سعادتها بالتواجد فى هذا المكان..

وفى حفل خطبتها ، لم تغادر (نجلاء) المنزل إلا بعد أن طبعت قبلة حانية على ساق زهرتها الجميلة ..

وعندما عادت من الحفل ، وهى تحمل دبلة (شريف) فى إصبعها ، جلست تروى كل شئ للزهرة ..

حكت لها عن أناقة (شريف) ووسامته ، وحنانه الجارف ، ولمسته الرقيقة، وهى يضع الدبلة فى إصبعها ..

كانت تتحدث إليها ، كما لو أنها صديقة عزيزة ، شاركتها أسعد لحظات حياتها..

والعجيب أن الزهرة لم تنغلق أبداً من لمساتها ، على الرغم من أن هذا النوع من الزهور لا يتفتح أبداً فى مكان غريب ..

ولا بين أصابع غريبة ..

لقد نما نوع الألفة بينهما ، جعل كلاً منهما تألف الأخرى ، وتأمن لها، وتشاركها مشاعرها وأسرارها ..

وفى ذلك اليوم ، وبينما كانت تروى زهرتها ، جاء (شريف) لزيارتها فجأة..

لم يكن يحمل تلك الابتسامة الرقيقة كعادته ، وإنما كانت عيناه غارقتين فى شئ من الحزن ، ارتجف له قلبها ، وانتقلت ارتجافته إلى لسانها ، وهى تسأله عما به..

وبرقته وحنانه ، أخبرها أن الشركة انتدبته لمراجعة حسابات فرعها فى الخليج العربى ، وأنه سيسافر إلى هناك بعد ثلاث ساعات ، ولن يعود قبل ثلاثة أشهر كاملة ..

وخفق قلبها ، وهو يهمس فى أذنها بأنه سيشتاق إليها كثيرا ، وسيتعذب لفراقها أكثر وأكثر ..

لم تكن تدرى كيف يمكنها العيش بدونه ، كل هذه الفترة ..

لم تدر كيف لن تراه كل صباح ، وهو يذهب إلى عمله ..

كيف ستحتمل غيابه الطويل ؟ ..

وسالت دموعها ، وهى تسأله ألا ينساها ..

وبدون أن تدرى ، امتدت يدها تقطف الزهرة ، وتناوله إياها ، وقطرات مـــن دموعها ترويها بمزيج من الشوق واللهفة والحب .. والعجيب أن الزهـــرة لـــم تغلق أوراقها بين أصابعه ..

لقد ظلت متفتحة ، تفوح برائحة الحب ..

وحتى يومنا هذا .

***

رسالة

خطيبى (فريد) ..

اعذرنى لأننى بدأت خطابى لك بهذا اللقب ، الذى تعتبره دائماً تقليدياً جامداً، ولكننى حاولت أن أبدأ الخطاب بلقب (حبيبى) ، أو حتى (صديقى) ، إلا أننى لـــم أستطع هذا قط .

أعلم أن هذه البداية قد تصدمك كثيراً ، وتثير سخطك وغضبك ونقمتك .

ولكن ما باليد حيلة ..

انت تعرفنى جيداً يا (فريد) .

لا يمكننى أبداً أن أنطق أو أكتب ما لا أشعر به ، أو أومن به ..

وهذا أيضاً سيصدمك ..

وقبل أن ترتجف شفتاك غضباً ، كما يحدث عادة ، دعنى أوضح لك موقفـــى، الذى دفعنى لكتابة هذا الخطاب إليك ، بدلاً من أن أسرد محتوياته على مســـامعك عندما نلتقى ..

ودعنا نعود إلى البداية ..

إلى لقائنا الأول ..

كان هذا فى حفل الكلية ، منذ عام ونصف العام تقريباً ..

كنت أنا إحدى المعدات للحفل ، فى حين حضرته أنت بصحبة شقيقتك ، التى تربطنى بها أواصر صداقة هادئة ، منذ التحقت بكليتى العملية ..

ولست أنكر أنك جذبت انتباهى منذ اللحظة الأولى ..

جذبتنى وسامتك الملحوظة ، ورصانتك الواضحة ، وتلك الرجولة الآســـرة ، فى صوتك ونظراتك وملامحك ..

ومما لا شك فيه أننى أيضاً جذبت انتباهك فى ذلك الحفل ..

ولا تسألنى كيف لاحظت هذا أو عرفته ..

كلنا معشر الفتيات نفهم هذا بسرعة ..

إنها فراستنا الخاصة ، التى نتفوق فيها عليكم معشر الرجال ..

المهم أننا – وقبل أن نغادر الحفل – كنا قد اتفقنا على لقاء ثلاثى آخر ..

أنت وشقيقتك .. وأنا ..

وفى ذلك اللقاء الثانى ، ازداد تقاربنا ، وتوطدت أواصر الصلة بيننـــا أكـثر وأكثر..

كان الحديث يدور حول عملك طوال الوقت ، وعلى الرغم من أننى لا أفـــهم الكثير عنه ، إلا أننى رحت استمع إليك فى شغف ، وأمنحك أذنى طوال الوقـــت، دون أن أقاطعك لحظة واحدة ، أو أرفع عينى عن شفتيك أبداً ..

حتى شقيقتك لاذت بالصمت ، واكتفت بمراقبتى طوال الوقت ، وكأنما تســعى لأن تستشف ما يعتمل فى نفسى تجاهك ..

وفقط عندما انتهى اللقاء ، أدركت أننى لم أنبس ببنت شفة ..

ولكن هذا لم يضايقنى ..

كنت سعيدة للغاية ، لأننى استمعت إليك ، وإلى حديثك المتصل الهادئ ..

ومنذ ذلك الحين ، وحتى تمت خطبتنا ، فى حفل عائلى أنيـــق ، لـــم يتغـير الوضع كثيراً..

أنت تتحدث طوال الوقت ..

وأنا استمع ..

فقط استمع ..

ومع كثرة ما سمعت ، تكونت عندى فكرة واضحة عن عملك ..

فكرة أدهشتك أنت نفسك ، عندما بدأت أناقشك وأبدى آرائـــى فيمـــا يتعلـق بمشكلات العمل والخلافات مع زملائك ..

ولقد أسعدنى تقديرك لهذا ..

أسعدنى أكثر مما تتصور ..

ومن فرط سعادتى ، بدأت انتقل – بصورة طبيعية – إلى الحديث عن حيـــاتى أنا..

عن دراستى ، وزملائى ، وصديقاتى ..

ولم يرق لك هذا ..

كنت تستمع إلىّ فى شئ من الضجر ، وتتململ طوال الوقت ، وتتشاغل عنى بالنظر إلى الطريق والمارة ..

ولست أنكر أننى لاحظت هذا منذ الوهلة الأولى ، ولكننى لم أتوقف .

كنت مصرة على أن تدخل عالمى ، كما دخلت أنا عالمك ..

أردت أن تعرف عنى كل شئ ، كما عرفت أنا عنك كل شئ ..

ولكننى لم أنجح أبداً ..

كان بداخلك إصرار شديد على تجاهل عالمى ..

إصرار بدا لى مهيناً إلى حد ما ..

ولهذا لم أستطع المواصلة ..

توقفت فوراً عن الحديث عن حياتى ، وعدت استمع إليك ، وأنت تروى الكثير عن حياتك ..

وتروى ..

وتروى ..

وحار عقلى فى البحث عن وسيلة لحوار متصل ، يربط كلاً منا بالآخر..

حوار يصلح لأن نتبادله بعد زواجنا ، لا فى فترة خطبتنا فحسب ..

كنت أبحث عن أمر يمكننا مناقشته معا ..

والتحاور فيه ..

وهكذا اخترت أبسط الأمور ..

الثقافة العامة ..

إننى أقرأ بنهم ، منذ سنوات طفولتى وصباى ، وتكونت لدى حصيلة ثقافية لا بأس بها ، تصلح كل نقطة فيها لحديث طريف أو حوار بسيط ..

تصلح على الأقل للربط بين عقلين ، انغمس قلباهما فى حب كحبنا ..

ولكن صدمتى كانت عنيفة ..

كانت أعنف بكثير مما يمكن تصوره ..

لقد انتبهت فجأة بعد عام ونصف العام من تعارفنا ، إلى أنك فارغ تماماً ..

ليست لديك أية معلومات عامة ، بخلاف ما يخص عملك ..

فقط عملك ..

لست أدرى ما الذى كنت تفعله طيلة حياتك !! ..

ألم تقرأ أبداً ؟! ..

ألم تحاول قط التزود بشئ من الثقافة أو المعرفة ؟ ..

ماذا فعلت بكل ما درسته فى مقرراتك الدراسية ، فى المرحلتين الإعدادية والثانوية؟! ..

هل ألقيت كل هذا خلف ظهرك ، بمجرد التحاقك بالجامعة ، أو بوظيفتك الجديدة؟!..

هل محوته تماما من ذاكرتك ؟! ..

إنك حتى لم تستوعب القضايا الهامة التى تشغل العالم كله ..

لم تفهم ما يعنيه مصطلح (البروسترويكا) ..

لم يكن يعنيك أمر المشكلات البيئية أو الاقتصادية ، التى تواجه الوطن..

ولا حتى التى تواجه العالم ..

الحديث عن ثقب الأوزون يضجرك ..

الحوار حول الإرهاب يثير فى نفسك الملل ..

حتى القضايا اليومية لم تعد تهتم بها ، من قريب أو بعيد ..

أنت فارغ ..

فارغ ..

فارغ ..

عقلك قرر طرح الدنيا كلها جانباً ، والتركيز فقط على ما يخص عملك ..

وكأنما انحصر العالم كله فى عملك ..

ليس هذا فحسب ..

إنه يصر أيضاً على ألا يستمع إلى أى شئ بخلاف هذا ..

أى شئ ..

ولهذا استسلمت ..

رفعت فى وجهك الراية البيضاء ، وأعلنت عجزى عن إيجاد لغة للحوار المشترك..

وهذا يعنى أننى لا أستطيع الاستمرار معك ..

لا يمكننى أن أحيا إلى الأبد كمستمعة مخلصة ..

المفروض أن استمع إليك وتستمع إلىّ ..

أن يتحدث كل منا أحياناً ..

أن نتناقش ..

نتجادل ..

باختصار .. المفروض أن نحيا معا ..

مرة أخرى اعذرنى يا (فريد) ..

لقد فكرت فى الأمر ، ودرسته طويلا ، ووجدت أننا لا نستطيع الاستمرار معا أبدا..

سامحنى يا (فريد) ، وأنت تستعيد دبلتك التى أرسلتها لك مع هذا الخطاب..

سامحنى لأننى لم أناقش الأمر معك وجها لوجـــه ، فقـد خشيـت أن يثـير الاستماع الملل فى نفسك ، حتى ونحن نناقش أمرا يتعلق بحياتنا معا ..

وربما اخترت أسلوب الخطاب بالذات ، لعلنى أنجح فى إجبارك على قـــراءة شئ ما، بخلاف أوراق عملك ..

أى شئ ..

واعتقد أننى نجحت هذه المرة ..

للأسف ..

وداعا يا (فريد) ..

وداعا إلى الأبد ..

خطيبتك السابقة

(نسرين)

***

قلبى ليس للبيع

صدقونى .. لست أدرى كيف أبدأ قصتى هذه ! ..

بل لست أدرى حتى كيف يمكن أن يكتب شخص ما قصته ، ويخطـــها علـــى الورق!..

كيف يمكن أن يحول مشاعره إلى كلمات ؟! ..

كيف يفرغ عذابات أعماقه فوق أوراق جامدة ، لا تشعر أو تبالى ، أو تتفاعل مع آلامه ومرارته ؟! ..

كل ما يمكن أن يشعر به الورق هو دموعى ، التـــى تتســاقط فوقــه ، لأن مواضع سقوطها عليه ستتجعد ، وتتغير ، وتفسد سطحه المنمق الأنيق ..

ولكننى لا أجد بديلاً عن الكتابة ..

لابد أن أروى قصتى لأحد ، قبل أن تتصاعد نيران قلبى أكثر وأكثر، وتلتـــهم كيانى كله ..

لابد أن يعرف شئ ما ، ما فعلته بقلبى ونفسى وحياتى ..

ولن أجد من يحفظ سرى ويصونه سوى الورق ..

وحده سيستوعب فى مساحاته كل كلماتى ، دون أن يفشى سرى .

دون حتى أن يقاطعنى ..

أو يلومنى ..

أو يسخر منى ..

الورق وحده ســيحتمل اعــترافى ، الــذى ســأخطه عليــه بكــل صراحــة ووضوح،و...

ومرارة ..

ثم إنه لن يعارض قرارى فى النهاية ..

فإما أن احتفظ باعترافى هذا فوق الورق أو أمزقه ، وأشعل فيه النيران ..

إنه قرارى وحدى ..

بعد أن انتهى من اعترافى ..

ويا له من اعتراف !!..

هيا .. خذى كلماتى أيتها الأوراق ، قبل أن تنهار أعماقى ، وأعجز حتى عن الكتابة .

فى البداية دعينى أقدم لك نفسى ..

اسمى (هبة) ..

ولا تسأليني عن باقى الاسم ..

يكفيك اسمى أنا ..

(هبة) ..

كل ما يمكننى أن أخبرك به عن أسرتى هو أنها أسرة كبيرة ..

شهيرة ..

معروفة ..

وثرية ..

وهذا الثراء الفاحش - كما يقولون - هو أساس مشكلتى ..

أو فلتقولى .. مأساتى ..

فأنا أيتها الأوراق من تلك الفئة ، التى يقال : إنها ولدت وفى فمها ملعقة من ذهب..

بل ولن أبالغ لو قلت : إنها لم تكن فقط ملعقة ..

لقد ولدت وفى فمى طاقم كامل من الذهب والماس وكل الأحجار الكريمة المعروفة ..

وأحيط مولدى بحفاوة بالغة ، عبرت عنها الصور الضوئية ، وشرائط (الفيديو) المسجلة ، التى شاهدتها فى حداثتى ، والتى ملأت نفسى بالزهو

والفخر، وجعلتنى أتصور نفسى كأميرة من أميرات الأساطير ، التى أشاهدها فى أفلام (والت ديزنى) التى تفتحت عينى لأجد مجموعة كاملة منها فى مكتبتى ..

فوالدى ووالدتى ينتميان إلى عائلتين بالغتى الثراء، ولقد تم زواجهما ، مثلما يحدث فى هذه الطبقة ، كإجراء اقتصادى ، لدمج الثروتين ، وكخطوة تجارية لإنشاء إمبراطورية مالية تسد عين الشمس ، كما يقول العامة ..

ولخمس سنوات كاملة ، لم ينعم الله (سبحانه وتعالى) عليهما بالإنجاب ، على الرغم من تأكيد كبار الأطباء فى (مصر) والعالم على أن كلاً منهما طبيعى، ولا يوجد ما يمنعه من الإنجاب ..

ثم فجأة ، وبعد أن بدأ اليأس يتسلل إلى نفوس الجميع ، أعلنت أنا عن وجودى على نحو درامى .

فكما روت لى جدتى فيما بعد ، كان أبى وأمى يحضران حفلاً رسمياً فى سفارة دولة كبيرة ، وكانت أمى تهم بشرب كوب من العصير الطازج ، عندما أطلقت فجأة شهقة مكتومة ، ورفعت يدها إلى فمها ، ثم أسرعت إلى الحمام ؛ لتفرغ كل ما فى جوفها مع آهة حارة ..

وفى منتصف الليلة نفسها ، أعلن طبيب العائلة البشرى ..

وبعد ثمانية أشهر وستة أيام بالضبط من هذه الواقعة ، أطلقت أنا صرختى الأولى فى هذه الدنيا ..

وكان من الطبيعى أن يقام لى حفل (سبوع) أسطورى ، على الرغم من أننى أتيت أنثى ، ولست ذكرا كما كان أبى وأمى يتمنيان ..

وبعد مولدى بقليل امتلأت نفس والدى باللهفة لإنجاب طفل آخر ، وأيدت أمى لهفته هذه بلهفة مماثلة ، ولكن كليهما أدركا بعد سنوات أربع ، أن هذا الأمل لم يعد ممكنا ، وأن عليهما أن ينتظرا حملا مصادفا ، كما جاء حمل أمى بى ..

ولم يحدث هذا الحمل أبداً للأسف ..

ولهذا أصبحت الابنة الوحيدة ، والمدللة لتلك الأسرة الشهيرة الثرية ..

ومنذ بدأت أعى ما حولى ، انتبهت إلى أن كل طلباتى أوامر ، وإلى وجود جيش من الخدم والحشم ، لا هم له إلا تلبية أوامرى ، واللهاث لإحضار كل ما أشير إليه ، مهما كان صعباً أو عسيراً ..

أو حتى مستحيلاً ..

وشببت بالفعل كالأميرة ، وحباتى الله (سبحانه وتعالى) بجمال طبيعى زاد من زهوى ونرجسيتى ، وخاصة عندما ألمح نظرات الإعجاب والانبهار ، فى عيون كل الشبان الذين ألتقى بهم ، فى الأسرة ، أو النادى ، أو حتى فى كلية الآداب التى التحقت بها بعد عامين من الرسوب فى الثانوية العامة ..

والتحاقى بكلية الآداب هو البداية الحقيقية لقصتى ..

فهناك ، التقيت بـ (عمر) ..

وقبل أن أقص عليكم لقائى الأول به ، دعونى أشرح لكم أمرا مهما ..

صحيح أننى نشأت بالغة الثراء والتدليل ، وأن هذا قد جعل طباعى لا تطاق، كما ينبغى أن اعترف الآن ، إلا أنه ترك لى قلب بنت عادية ..

قلب حالم ، عاطفى ، يهفو إلى لمسة الحب الأولى ، وإلى دقات العشق ، التى تختلف حتما عن كل دقات القلب العادية ، وتعزف وحدها لحنا تلتهب به مشاعر كل أنثى ..

وبالذات فى تلك الفترة من العمر ..

وفى عظم ليالى الصيف والربيع ، لم يكن يغمض لى جفن ، حتى مطلع الفجر، وذهنى يشترك مع قلبى فى رسم صورة لفتى أحلامى ..

صورة راحت تتكون وتتشكل مع الأيام ، حتى خلت أنها حقيقة ، وأن فتى أحلامى هذا حى يرزق ، يحيا فى وجدانى ، وأصبحت لدى ثقة قوية بأننى

سألتقى به يوماً فى عالم الحقيقة ، حتى إننى رحت انتظر هذا اللقاء ، وأترقبه فى لهفة، وأحلم به فى نومى ويقظتى ..

واعتقد أنكم ، بعد ما شرحته لكم ، ستفهمون جيداً لماذا سرت فى عروقى قشعريرة باردة ، وانتفض جسدى كله ، واختلج قلبى بين ضلوعى ، عندما وقع بصرى على (عمر) لأول مرة ..

وفى أول يوم من أيام الدراسة ..

بل فى أول ساعة ..

لقد كان (عمر) هو رئيس اتحاد طلاب الكلية ، وكان قد أعد حفل استقبال بسيط للطلبة الجدد ، لامتصاص توترهم وقلقهم ، ومنحهم الشعور بالأمان والهدوء، ودفعهم إلى تعرف مجتمعهم الجامعى ، والاندماج فيه دون مخاوف أو تعقيدات ..

وما إن وقعت عيناى على وجه (عمر) الوسيم وابتسامته الهادئة الودود ، حتى وجدت نفسى أهوى فى بئر حبه حتى القرار ، وأصرخ بكل لهفة فى أعماقى..

إنه هو ..

إنه فتى أحلامى ..

كان نسخة طبق الأصل من تلك الصورة ، التى صنعتها فى أحلامى منذ تنسم قلبى رحيق المراهقة الأول ..

نفس الوجه ، والعينين ، والابتسامة ..

نفس الهدوء ، والثقة ، والوسامة ..

إنه هو ..

هو ..

هو ..

ولست أدرى بالضبط كيف مر بى ذلك الحفل ، ولا ما إذا كان الجميع قد لاحظوا نظرة الانبهار التى أحدجه بها طوال الوقت أم لا ، ولكن ما أعرفه جيداً هو أن الحفل لم يكد ينفض ، حتى كنت قد اتخذت قرارى فى هذا الشأن ..

فلم يعد الهدف من التحاقى بكلية الآداب ، هو الحصول على شهادة الليسانس..

بل أصبح هدفى الأول هو الحصول عليه ..

على (عمر) ..

* * *

" أستاذ (عمر) .. "..

لست أدرى ما إذا كانت اختلاجة قلبى قد انتقلت إلى صوتى أم لا ، عندما ناديته باسمه ، فى ساحة الكلية ، ولكنه عندما التفت إلى ، كانت عيناه تحملان نظرة عجيبة ، تجمع ما بين الدهشة والتساؤل والاهتمام ، مع شئ من الإعجاب، شجعنى على الاستطراد قائلة فى سرعة :

- أريد استشارتك فى أمر خاص .

ارتفع حاجباه فى مزيد من الدهشة ، وهو يغمغم :

- خاص ؟!

ارتبكت وأنا أجيب :

- نعم .. خاص بخبرتك فى .. فى اتحاد الطلاب .

رمقنى بنظرة طويلة ، وكأنه يحاول النفاذ إلى أعماقى ، وكشف الهدف الحقيقى لسؤالى ، غلا أنه لم يلبث أن اعتدل فى هدوء ، وقال فى لهجة مهذبة:

- أنا رهن إشارتك .. ما الذى ترغبين فى معرفته ؟!

ارتبكت أكثر وأكثر ، لأنه لم يكن لدى ما أسأل عنه فعليا ، وتطلعت إليه لحظات فى صمت متوتر ، وهو يتطلع إلى عينى مباشرة ، فى انتظار سؤالى،

ونظراته تزيدنى اضطرابا وارتباكا ، والصمت بيننا يطول ويطول ، حتى ارتسمت على شفتيه ابتسامة متعاطفة ، وسألنى بلهجة هادئة رقيقة :

- هل ترغبين فى ترشيح نفسك ، فى انتخابات اتحاد الطلاب القادمة ؟!

كدت أصرخ من فرط السعادة ، عندما انتشلنى سؤاله من بحر حيرتى العميق، وهتفت فى لهفة :

- بالتأكيد .

اتسعت ابتسامته ، وهو يسألنى :

- لأية لجنة من لجان الاتحاد ؟

أجبته بسرعة :

- اللجنة التى تنتمى إليها .

قفزت الدهشة إلى وجهه وعينيه بغتة ، وانفرجت شفتاه لحظة فى حيرة واضحة، ثم اعتدل فى وقفته ، وخيل إلى أنه فهم حقيقة الموقف فى لحظة واحدة، وهو يجيبنى فى رصانة ووقار ، اختلج لهما قلبى :

- اللجنة الاجتماعية ترحب بك يا آنسة ...

هتفت بسرعة :

- (هبة) .. اسمى (هبة) .

ابتسم ، قائلا :

- اللجنة الاجتماعية ترحب بك يا آنسة (هبة) ، وأعدك أن أساعدك بقدر استطاعتى، وفى حدود ما تسمح به لوائح اتحاد الطلاب ، لتفوزى بالمقعد ، فى الانتخابات القادمة بإذن الله .

رقص قلبى لكلماته ، واختلج فى قوة ، وأنا أراقبه يبتعد عنى ، وهتف هاتف فى أعماقى للمرة العاشرة ..

أريد هذا الشاب بالذات ..

أريده ..

وبكل اللهفة والرغبة فى أعماقى ، رحت أجمع أكبر قدر من المعلومات عن (عمر) ..

وكان أول ما عرفته هو أن (عمر) من أسرة عادية بسيطة، لا هى بالغنية ولا بالفقيرة..

أسرة يمكنها أن تحيا حياة كريمة ، وأن تحصل على كل احتياجاتها الضرورية، ولكنها لا تستطيع التطلع إلى الرفاهية ، ولا تملك حتى أن تفعل ، ولا أن تدخر قرشا واحدا ..

وعرفت أيضا أن (عمر) من المتفوقين فى الكلية ، وأنه فاز بمنصب رئيس اتحاد الطلاب لعامين على التوالى ، وأنه يستعد لترشيح نفسه للمنصب ذاته، فى هذا العام أيضا ..

وأنه يهوى التصوير الفوتوجرافى ، ويزاوله باستخدام آلة تصوير بسيطة بدائية روسية الصنع ، يعتز بها كثيرا ، على الرغم من إمكانياتها المتواضعة، التى يجيد استخدامها والتعامل معها ؛ ليخرج بلقطات رائعة فريدة ، لم أر أجمل منها فى حياتى كلها ..

وبحسبة بسيطة ، أدركت أن هذا هو المدخل الصحيح لقلب (عمر) ..

هوايته ..

ففى طفولتى ، سمعت جدى يقول : إن أفضل وسيلة للتقرب إلى شخص ما، هى مشاركته هوايته المفضلة، فالمرء يميل بطبيعة الحال إلى من يشاركونه اهتماماته وميوله ..

وفى مساء اليوم نفسه ، أبرقت إلى مكتب والدى فى (واشنطن) طالبة من المدير هناك أن يبتاع لى أفضل آلة تصوير يابانية موجودة ، وأن يرسلها إلى (القاهرة) بأسرع وأضمن وسيلة ممكنة ..

وعلى عكس (عمر) ، لم يكن الحصول على أحدث آلة تصوير فى العالم يمثل لى أية مشكلة ، فلم تمض أيام ثلاثة على برقيتى ، حتى وصلتنى حقيبة أنيقة، تحوى آلة تصوير حديثة للغاية ، مع طاقم العدسات الخاص بها ..

ولم يحاول طاقم مكتب (واشنطن) حتى استشارة أبى فى (القاهرة) قبل شراء آلة التصوير وإرسالها ، فقد علمتهم الأيام أن طلبات (هبة) أوامر ، لابد وأن توضع دائما على قمة الاهتمامات ، وأن تسبق حتى أوامر أبى نفسه .

وعندما وصلت آلة التصوير لم يحاول أبى حتى أن يسأل عن سبب طلبى لها، ولم يلق نظرة واحدة على فاتورة شرائها ، التى تجاوزت الألفى دولار ..

إنها لعبة جديدة طلبتها (هبة) ..

وهذا يكفى ..

الشئ الوحيد الذى أدهشه هو فرحى الشديد ولهفتى البالغة، عندما وصلت آلة التصوير، فحتى فى طفولتى لم أبد أى فرح أو لهفة ، تجاه أية لعبة جديدة، مهما بلغت قيمتها ، أما والدتى فقد أضاء وجهها بابتسامة كبيرة ، وربتت على كتفى ، وهى تتمنى لى المزيد من السعادة كعادتها ..

وفى تلك الليلة لم يغمض لى جفن بحق ..

لقد قضيت ليلتى كلها أقلب آلة التصوير ، وأقرأ الدليل الخاص بها ، فى محاولة لفهم بعض خواصها ، قبل أن أحملها فى الصباح التالى إلى الكلية .

وفى لهفة ، رحت أبحث عن (عمر) فى كل مكان ، حتى عثرت عليه، منهمكا فى الحديث حول انتخابات اتحاد الطلاب القادمة ، مع عدد من زملائه ، فأقحمت نفسى فى حديثهم ، بحجة استعدادى لخوض الانتخابات ، وتركت حقيبة آلة التصوير الجديدة تتدلى من كتفى فى أناقة ، وقلبى يخفق فى قوة ، ويتمنى ألا يستغرق (عمر) طويلا قبل أن يبدى اهتمامه بها .

ورقص قلبى بين ضلوعى فى سعادة غامرة ، عندما لمحته يتطلع إلى الحقيبة فى اهتمام بالغ ، ولهفة لم يحاول إخفاءها ، قبل أن يميل نحوى ، ويسأل :

– هل تحوى هذه الحقيبة آلة تصوير ، أم ...

لم أمنحه الفرصة ليتم سؤاله وأنا التفت إليه ، وأجيب فى سرعة ولهفة :

– بالطبع .. هل ترغب فى رؤيتها ؟

تهللت أساريره كطفل صغير، وهو يهتف :

– آه .. بالتأكيد .. لو أنك تقبلين هذا .

أسرعت أدفع الحقيبة كلها إليه ، وأنا أقول فى سعادة :

– ولماذا أرفض ؟! .. الواقع أننى أحضرتها خصيصا لسؤالك عن بعض خصائصها ، فأنا أعلم أنك تهوى التصوير الضوئى .

وعاد قلبى يرقص طربا ، وهو يلتقط الحقيبة فى حرص ملهوف ، كما لو أنه أب يحمل طفله الأول فور مولده ، وأطلت سعادته مع صوته ، وهو يقول :

– إنها المرة الأولى التى أشاهد فيها آلة تصوير من هذا الطراز ..

لقد قرأت عنها فحسب ..

وفى تلقائية جميلة ، جلس فوق إحدى درجات السلم المجاور والتقط آلة التصوير من الحقيبة فى حرص وعناية ، وكأنما يلتقط تحفة ثمينة من زجاج هش، ويخشى أن تحطمها أصابعه ، مع أقل ضغط ..

وتضاعف انبهارى به ، وأنا أجلس إلى جواره ، وأراقبه وهو يفحص آلة التصوير فى سعادة وانبهار ، وعلى نحو يشف عن اهتمام وخبرة فى هذا المجال، وحاولت أن أقول شيئا ، إلا أن الكلمات انحبست فى حلقى ، وظلت تقاوم لسانى طويلا، قبل أن تنطلق فى صوت متحشرج :

– هل .. هل تروق لك ؟!

هتف بالجواب فى حماس :

– بالتأكيد .. لطالما تمنيت الحصول على مثلها .

ثم تلاشى الحماس من صوته وعينيه ، وأطل شئ من الحزن بدلا منهما، وهو يتابع فى خفوت :

– ولكن لا أملك ثمنها .

تمنيت لحظتها أن أهتف به :

– إنها لك .. لقد أحضرتها من أجلك .

ولكن الكلمات احتبست فى حلقى ، وأنا اتطلع إليه صامتة ، فى حين راح هو يقول، وهو يتابع فحص آلة التصوير :

– هل تعلمين .. بآلة تصوير كهذه ، يمكننى أن أقيم معرضا فريدا ، خلال شهر واحد .

اخترقت كلمة واحدة حلقى ، وأنا أتمتم بصوت مختنق :

– حقا ؟!

تنهد مجيبا :

– ليس لدى أدنى شك فى هذا .. إنها آلة تصوير رائعة ، وإمكانياتها بلا حدود.

كدت أحسد آلة التصوير ، على ما تحظى به من حبه ورعايته واهتمامه ، وأنا التقط أنفاسى ، وازدرد لعابى قائلة :

– فليكن .. يمكنك أن تبدأ فى الإعداد لمعرضك .

التفت إلى ، يسألنى فى دهشة :

– ماذا تعنين ؟! .

تطلعت لحظة إلى عينيه الحانيتين المندهشتين ، قبل أن أجيب :

– أعنى أنه يمكنك الاحتفاظ بها ، حتى تقيم معرضك .

اتسعت عيناه عن آخرهما ، وقفزت دهشته إلى ذروتها ، وهو يقول :

– احتفظ بها ؟! .. هل تعنين حقا ما تقولين ؟! .. أتعلمين كم تساوى آلة تصوير كهذه ؟

نهضت قائلة :

– إنها لن تساوى شيئا ، لو لم تخرج منها صور رائعة ، كالتى تلتقطها أنت.

حدق فى وجهى بدهشة بالغة ، وأطل فى عينيه مزيج من الشكر والامتنان ، كاد قلبى يهوى له بين ضلوعى ، لو لم أهتف مستطردة :

– اعتبرنى شريكتك فى معرضك القادم .

وأسرعت أبتعد عنه ، قبل أن تفضحنى عيناى ، أو تبلغ خفقات قلبى مسامعه.

وعندما غادرت الكلية ، كنت واثقة من أننى قد ربحت الجولة الأولى فى اللعبة.

وفى قلبه .

* * *

لم يكد موسم الانتخابات الطلابية يهل ، حتى اشتعلت الجامعة كلها بالحماس، واكتظت جدرانها باللافتات الدعائية ، التى تدعو الطلاب لانتخاب هذا أو ذاك ، وتجمع عدد من الطلاب فى كل ركن، حول بعض المرشحين ، الذين راحوا يشرحون برامجهم الانتخابية ، بكلمات حماسية وأصوات عالية ..

فيما عدا (عمر) ..

وحده ظل هادئا مبتسما كعادته ، يتحدث إلى الجميع فى تلقائية وبساطة، دون أن أجد اسمه على لافتة واحدة ..

وبكل الدهشة والقلق فى أعماقى ، سألته :

– أين دعايتك الانتخابية ؟! .. لماذا لا تشرح برنامجك للزملاء ، كما يفعل الآخرون؟

ابتسم فى هدوء ، وهو يجيبنى :

– برنامجى لا يحتاج إلى الشرح ، فأفراد دفعتى كلهم يعرفوننى، ويعرفون ما فعلته من أجلهم طوال العامين الماضيين ، أما بالنسبة للدعاية ، فلن يمكننى تعليق لافتات أنيقة كالآخرين .

سألته فى حيرة :

– لماذا ؟!

تطلع إلى عينى لحظة فى صمت ، قبل أن يجيب فى بساطة، دون أن يفقد ابتسامته الهادئة الواثقة :

– لأننى لا أملك ثمنها .

صدمنى الجواب فى البداية ، وجعلنى أتساءل فى أعماقى :

– أمن الممكن ألا يجد شخص ما ثمن مجموعة من اللافتات الدعائية ؟!

ولكننى لم ألبث أن تذكرت حديثا قديما لجدتى ، أخبرتنى فيه أنه من الناس من لا يجدون حتى قوتهم اليومى ، فغمغمت فى خفوت :

– لا تملك ثمنها ؟!

أومأ برأسه إيجابا فى بساطة ، وتابع :

– أسرتى أسرة عادية ، ليست بالفقيرة أو الغنية ، ووالدى لا يبخل علينا بكل ما يمتلك ، ولكن ليس من العدل أن أنفق جزءا من دخلنا المحدود لعمل دعاية انتخابية .

تطلعت إليه فى انبهار ، وهو يتحدث إلى بتلقائية مدهشة ، ويصف لى حياته ومستوى أسرته المحدود ..

وفى أعماقى ولدت فكرة جديدة ..

لو أن (عمر) لا يملك تكاليف حملته الدعائية ، فأنا أملكها ..

ولكن كيف يمكننى منحه إياها ؟! ..

إنه سيرفض أية نقود بالتأكيد ، حتى ولو منحته إياها كقرض محدود ، ولـــن يقبل الفكرة من الأساس ، و...

وفجأة ، قفزت الفكرة إلى ذهنى ..

ولأنها لم تكن تحتاج إلا للوقت والنقود ، فقد شرعت فى تنفيذها فور عودتى إلى المنزل .

لم أقم بتنفيذها بنفسى بالطبع ، وإنما أسندت المهمة إلى واحد من موظفـــى والدى، الذى أسرع يعد كل ما طلبته منه ، دون أية أسئلة كالمعتاد ..

وفى الصباح التالى ، كانت جدران الكلية كلها تحمل لافتـات دعائيـة بالغـة الأناقة، تدعو لانتخاب حبيبى ..

(عمر) ..

وجاء رد فعل الجميع عجيبا للغاية ..

لقد أصابتهم دهشة بالغة ، لأن (عمر) لم يستخدم اللافتات الدعائية قط، منـذ قام بترشيح نفسه فى الانتخابات للمرة الأولى .

وكان أكثر الجميع دهشة هو (عمر) نفسه ..

لقد أدار عينيه فى اللافتات حائرا ، قبل أن يقول فى دهشة تحمل شيئـا مـن الاستنكار :

- من فعل هذا ؟!

ارتبكت للأسلوب الذى نطق به عبارته ، وسألته :

- ألم يسعدك هذا ؟

أجابنى فى حدة :

- كلا بالطبع .. فكرة اللافتات الدعائية هذه تخالف أسلوبى تماما .

شعرت بالحرج ، وأنا أغمغم :

- ربما فعلها شخص يحبك ، تصور أنها ستفيدك .

وتعمدت الضغط على كلمة (يحبك) هذه ، لعل رسالتى تصل إليه ، إلا أنه لـــم ينتبه إلى هذا ، وهو يجيب فى شئ من الغضب :

- كان ينبغى أن يستشيرنى أولا .

انخفض صوتى أكثر ، وأنا أجيب فى انكسار :

- لقد خشى أن ترفض .

قال فى عصبية :

- ولو .. كان المفترض أن ..

ثم بتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه ، وهو يلتفت إلى ، ويحدق فى وجـــهى بدهشة، جعلتنى أخفض عينى ، متمتمة :

- لم أكن أدرك أن هذا سيغضبك هكذا .

هتف فى لهجة أشبه بالارتياع :

- أنت ؟!

ارتجفت شفتاى ، وأنا أومئ برأسى إيجابا ، والدموع تترقرق فـــى عينـــى ، فحدق فى وجهى لحظة ، وانفرجت شفتاه ، وكأنه يهم بقول شئ ما ، ثم لم يلبث أن أشاح بوجهه ، وانطلق مبتعدا فى خطوات سريعة واسعة ..

وخفق قلبى فى عنف ..

خفق كطير ذبيح ، يذرف آخر قطرة من دماء الحياة ..

وانهارت مشاعرى كلها فى أعماقى ..

ماذا فعلت ؟!

لقد سعيت لكسب قلب حبيبى ، فخسرته إلى الأبد ..

نشدت سعادته ، ففجرت غضبه وسخطه على أبدا ..

ماذا فعلت ؟!

ماذا فعلت ؟!

ودون أن أدرى ، انسكبت دموعى الحارة على وجهى ، وراحت تغرقه كسيل وحشى، دون أن أنتحب ، أو تصدر عنى آهة واحدة ..

والعجيب أن أحدا لم يحاول سؤالى عن سبب بكائى ، أو يقترب منى حتى طوال الفترة التى سالت فيها دموعى ..

الجميع اكتفوا بالتطلع إلى لحظات ، ثم انصرفوا غير عابئين ، وكأنما لا يعنيهم أمرى، أو تشغلهم دموعى ..

ربما لأننى لست الطالبة الوحيدة التى سالت دموعها فى الحرم الجامعى ..

أو لأنه ليس لى أصدقاء سوى (عمر) فى الكلية كلها ..

ربما ..

المهم أننى ظللت أبكى لنصف ساعة أو يزيد ، حتى خيل إلى أن دموعى قد نضبت تماما ، عندما فوجئت بيد تمتد إلى بمنديل نظيف ، وصاحبها يقول فى خفوت:

- جففى دموعك .

خفق قلبى مرة أخرى فى عنف ، وأنا ألتفت إليه .

إلى (عمر) ..

ومع اللهفة التى أطلت من عينى ، غمغم هو فى شئ من الخجل :

- معذرة .. لم أكن أقصد ما قلته .. الواقع أننى أشكرك كثيرا على ما فعلت من أجلى.. صدقينى.. أنت أفضل أخت لى فى هذا العالم .

ولا أحد يمكنه أن يصف خفقات قلبى فى تلك اللحظة ..

لقد رقص كيانى كله معها ، وهو يشكرنى على ما فعلته من أجله ، وكادت تلك اللحظة تصبح أفضل وأروع لحظات حياتى ، لولا كلمة واحدة ..

عندما وصفنى بأننى أفضل (أخت) له ..

لا يا (عمر) ..

لست أريد أن أكون أختك ..

أريد أن أصبح حبيبتك ..

حبيبتك يا (عمر) ..

ولكن لا بأس بها من بداية ..

المهم أنه شعر بما أفعله من أجله ..

وأدرك كم أحبه ..

والأكثر أهمية أنه نجح ..

نجح نجاحا ساحقا فى هذا العام ، أفضل مرتين من نجاحه فى الأعوام السابقة، وكأنما أتت فعلتى ثمارها ، وأضافت إليه أصوات نخبة جديدة من الطلاب ، مازالت تؤمن بأسلوب اللافتات الدعائية التقليدية ..

وفى غمرة سعادته بالنجاح ، شكرنى (عمر) فى حماس لما فعلته من أجله، ثم قال لى فى انفعال :

- وبالمناسبة .. آلة التصوير التى أعرتنى إياها ، أدت عملها بنجاح منقطع النظير ، وأنا أستعد لإقامة المعرض خلال أسبوعين .

صفقت بكفى فى سعادة كالأطفال ، وأنا أهتف :

- حقا .

اتسعت ابتسامته ، حتى شملت وجهه كله ، وهو يومئ برأسه إيجابا ، ويقول فى سعادة :

- واعتقد أنك أحق الناس بافتتاحه .

هل يمكنكم أن تتخيلوا سعادتى حينذاك ؟! ..

لقد خفقت عروقى كلها بفرحة غامرة ، ولم أستطع النوم لأسبوع كامل ، وأنا أفكر فيما قاله ، وفى المعرض القادم ، الذى منحنى شرف افتتاحه ، وفى كيفية جعله أفضل معرض للتصوير الفوتوجرافى شهدته الجامعة منذ افتتاحها ..

ولم يكن هذا عسيرا ، مع اتساع دائرة معارف أبى واتصالاته ..

وفى صباح يوم الافتتاح ، فوجئ (عمر) بكل الصحف اليومية تقريبا تشير إلى معرضه، وتصفه بأنه رئيس اتحاد طلاب الكلية وفنان الجامعة ، وتصدرت صورته باب أخبار الجامعات فى إحدى الصحف الشهيرة ، وتنازلت أنا عن حق افتتاح المعرض للأستاذ (رفقى) ، أشهر مصور صحفى فى (مصر) كلها ، الذى انبهر بالصور التى التقطها (عمر) بالفعل وهنأه عليها كثيرا ، وتنبأ له بمستقبل باهر..

بل وبلغت دهشة (عمر) ذروتها ، عندما فوجئ بمندوب شركة خاصة يتعاقد معه على استغلال صوره فى إنتاج نتيجة حائط أنيقة للعام الجديد ، ومنحه عربونا ضخما، مع وعد بوضع اسمه على كل الصور ..

واعتقد أنكم أدركتم على الفور أن هذه الشركة واحدة من الشركات التابعة لإمبراطورية أبى ..

ولكن (عمر) لم يدرك هذا لحسن الحظ ..

ولقد قفزت سعادته إلى القمة بهذا المعرض ، وأخبرنى أننى جلبت له حسن الحظ..

وكان كل هذا كفيلا بتفجير كل ينابيع سعادتى ..

لولا صورة واحدة ..

صورة وضعها (عمر) فى مكان الصدارة فى معرضه ، وكأنه يحمل لها اعتزازا خاصا للغاية ..

أو بمعنى أدق ، يحمل لصاحبتها كل الاعتزاز والتقدير ..

فالصورة كانت لفتاة مثل عمرى تقريبا ، عادية الملامح ، بسيطة الملبس ، على نحو يشف عن التواضع ورقة الحال ، ولكن وجهها كان يحمل ابتسامة عجيبة..

ابتسامة أثارت فى أعماقى قدرا هائلا من الغيرة ، بكل ما تحمله من رقة وعذوبة وسحر ..

ابتسامة حب ..

وفى قلق لا يوصف ، سألت أحد أصدقاء (عمر) المقربين :

– لماذا أحاط (عمر) هذه الصورة بكل الاهتمام ؟

ابتسم صديقه ، وهو يتطلع إلى الصورة فى إعجاب ، قائلا :

– هذا أمر طبيعى ، فهى صورة (ليلى) .

تصاعدت حدة الغيرة فى أعماقى ، وأنا أسأله :

– (ليلى) من ؟!

أجاب فى بساطة :

– (ليلى) ابنة عم (عمر) .

كان هذا الجواب وحده يكفى لإثارة أطنان من غيرتى ، فما بالكم بما أضافه فى هدوء:

– وحبيبته .

ومع قوله ، انطلقت خفقات قلبى كقنبلة نووية ..

لقد كان الجواب أشبه بصاعقة هوت على قلبى ، ومزقته إربا بلا هوادة ..

صاعقة لا تحمل أدنى قدر من الرأفة ..

أو الرحمة .

* * *

انتهى المعرض ، ورفعت كل الصور من أماكنها ..

فيما عدا صورة (ليلى) ..

صحيح أنها لم تعد تحتل مكانها فى صالة العرض ، ولكن شيئا لـــم يســتطع انتزاعها من قلبى وعقلى قط ..

لقد انحفرت صورتها فى كيانى ، وانغرست فيه ، لتدمى قلبى طوال الوقت بلا انقطاع..

لم أستطع قط نسيان ما وصفها به صديق (عمر) ..

إنها ابنة عمه ..

وحبيبته ..

لو أنها حبيبته ، فمن أكون أنا ؟! ..

ما موقعى فى قلبه ؟! ..

ما الذى صنعه كل ما فعلته من أجله ؟! ..

لماذا هى وليس أنا ؟! ..

لماذا ؟! ..

لماذا ؟! ..

لماذا ؟! ..

لم أناقش هذا الأمر قط مع (عمر) ، بل لم أشر حتى إليه ، على الرغم مـــن لهفتى طوال الوقت لهذا ..

وهو بدوره لم يشر إلى (ليلى) هذه أبدا ..

لقد استمرت علاقته بى أنيقة نظيفة ، يغلفها الأدب والود ، دون أن تتجـــاوز حدود الصداقة ، أو تقترب ، مجرد الاقتراب من حافة الحب ..

ووقر فى قلبى أن (ليلى) هذه هى المسئولة عن الحاجز بينى وبينه ..

هى السبب فى أن (عمر) لا يشعر بحبى له ..

صحيح أننى لمحت نظرة حب فى عينيه مرة أو مرتين ، وهو يتحدث إلى، إلا أنها كانت تختفى بسرعة خلف حاجز من الرصانة والاحترام المـــهذب ، اللذيـــن ترتجف لهما عروقى حنقا وغضبا .

وصدقونى أننى حاولت جاهدة نسيان أمر (ليلى) هذه ..

حاولت ، وحاولت ، وحاولت .

ولكننى فشلت ..

لم يكن بمقدورى قط أن أنسى الفتاة التى يحبها حبيبى ..

لم يكن من الممكن أن أستوعب حتى وجودها ..

وكثيرا ما كنت أتساءل : ما الذى وجده فيها ؟!

ما الذى جعله يحبها ؟!

وكلما ألقيت السؤال على نفسى ، كانت صورتها تتمثل فى ذهنى بابتســـامتها الرقيقة الساحرة ، فتمتلئ نفسى بالغيرة والحنق والحسد ، وأبكـــى طويـــلا فـــى فراشى..

وعلى الرغم من ثقتى بحبه لها ، واصلت علاقتى بـــ (عمر) ، الـــذى كـــان يطير فرحا عندما تم طبع النتيجة ، التى تحوى صوره وتوقيعه ، ومال على أذنى هامسا:

- الفضل لك ، بعد الله (سبحانه وتعالى) .

رقص قلبى فرحا لقوله ، ووجدت نفسى أكره (ليلى) هذه أكثر وأكثر، فلولاها لكان قلبه خالصا لى ، بكل حبه ودفئه وحنانه ..

ولست أدرى كيف مر بنا العام الدراسى ، وقلبى يحمل كل هـــذه المشـــاعر، ولكننى استيقظت فجأة ، لأجد أن (عمر) قد انتهى من الامتحانات النهائية، وبات ينتظر النتيجة ، للحصول على درجة (الليسانس) ..

وفى آخر أيام العام الدراسى ، جلست طويلا مع (عمر) ، الذى حدثنى عن آماله وأحلامه ، على نحو وجد صدى رائعا فى قلبى ، وجعلنى أتساءل : أما زال يحب (ليلى) هذه حقا ؟!

وعندما نهضنا لننصرف ، كدت أتعلق به ، وأناشده أن يبقى ، فلم يكن بمقدورى أن أتصور أنه سيمضى الصيف كله ، دون أن أراه .

ولقد ضغط هى يدى فى حنان دافئ ، وهو يقول :

- سأبذل قصارى جهدى لنظل على اتصال يا (هبة) ، وأتمنى أن أراك يوم ظهور النتيجة .

قلت بصوت متهدج :

- سأنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر .

لم أكد أنطقها ، حتى شعرت بخجل عارم ، جعلنى أستطرد فى سرعة:

- لأعرف نتيجتك على الأقل .

حمل وجهه ابتسامة حانية رائعة ، وارتفع حاجباه فى تأثر ، وهو يتطلع إلى عينى مباشرة ، قبل أن يقول فى عمق :

- النتيجة لا تقلقنى كثيرا يا (هبة) .. لقد بذلت قصارى جهدى ، واعتقد أن النجاح سيكون من نصيبى بإذن الله ، ولكنه مجرد خطوة فى حياة الإنسان، فالمهم بعدها أن يحصل على عمل جيد ، وأن ينجح فى حياته العملية ، و ...

وصمت لحظة ، وهو يواصل التطلع إلى عينى ، قبل أن يضيف بصوت خافت حنون:

- وأن يحقق أحلامه .

لا أحد يمكنه أن يرسم صورة لى فى ذلك اليوم .

لقد عدت إلى منزلى وأنا أطير من الفرح والسعادة ، وعقلى يستعيد كل كلمة نطق بها ..

إنه يحبنى ..

يحبنى ..

يحبنى ..

ولكن فجأة ، عادت صورة (ليلى) ترتسم فى خيالى ..

وعاد ذلك السؤال البغيض يمزق قلبى ..

كيف يحبك ، وهو غارق فى حبها ؟! ..

القلب لا يحب مرتين ..

هكذا علمونا فى صغرنا ..

وهكذا يقول قلبى ..

ومرة أخرى ، انتزعت (ليلى) فرحة قلبى ..

مرة أخرى حرمتنى من السعادة بمن أحب ..

وبدلا من أن يرقص قلبى طربا لكلماته ، بات يبكى بدموع من الدم؛ لأنه ليس لى..

ولكن هذا لم يمنعنى من التفكير فى أمره ..

وفى كلماته الأخيرة ..

النجاح وحده لا يكفى .. المهم أن يحصل المرء على عمل جيد ، وعلى حياة عملية ناجحة ..

فكرت فى كلماته طويلا وكثيرا ، قبل أن أتجه إلى مكتب والدى، الذى استقبلنى بابتسامة كبيرة كعادته ، وهو يقول :

- أهلا يا (هبة) .. كيف حالك ، وكيف تسير أيام الإجازة معك ؟!

رددت تحيته ، ثم قلت دون مقدمات ، وأنا أضع أمامه بيانات (عمر) :

- أبى .. أريد منك أن تجد وظيفة فى شركاتك لهذا الشاب .

ارتفع حاجباه فى دهشة ، وألقى نظرة على بيانات (عمر) فى اهتمام قبل أن يسألنى:

- ما مؤهلاته بالضبط ؟

أجبته بسرعة :

- سيحصل على شهادة (الليسانس) بعد شهر واحد .

ارتفع حاجباه مرة أخرى ، ثم هز رأسه ، وسألنى :

- لماذا هذا الشاب بالذات ؟!

خفضت عينى فى خجل وأنا أجيب فى خفوت :

- يهمنى أمره .

ارتسمت على شفتيه ابتسامة حانية ، وهو يغمغم :

- آه .. فهمت .

ثم اعتدل فى مجلسه ، واستطرد بلهجة رئيس مجلس الإدارة الحاسمة :

- يمكنك أن تطمئنيه ، فلو حصل على (الليسانس) هذا العام سيجد وظيفة محترمة فى انتظاره .

قفزت أتعلق بعنقه ، وغمرت وجهه بالقبلات ، فاتسعت ابتسامته الحانية، وهو يضمنى إليه فى رفق ، وكأنما يعلن موافقته على ارتباطى بـ (عمر) ، دون أن يسألنى عنه أو عن أسرته ومستواه الاجتماعى ..

نفس ما كان يفعله ، كلما راقت لى لعبة فى طفولتى ..

(هبة) تحتاج إلى هذا الشئ ..

وهذا سبب كاف لحصولها عليه ..

وأصبحت أعد الساعات والدقائق والثوانى ، فى انتظار لحظة ظهور النتيجة، لأزف إلى (عمر) البشرى .

بشرى حصوله على عمل فى شركات والدى ..

ولأننى انتظر ، مرت الدقائق كالساعات ، والأيام كالشهور ، حتى خيل إلى أنه قد مر دهر كامل ، قبل أن أهرع إلى الكلية لألتقى به ، ونطالع معا نتيجته .

وكان لقاؤنا رائعا ..

بالنسبة لى على الأقل ..

لقد تصافحنا فى حرارة ، وأطلت اللهفة من عينيه ، وهو يقول فى رصانة :

- أهلا يا (هبة) .. أوحشتنى كثيرا .

أما أنا ، فكدت ألقى نفسى بين ذراعيه ، من شدة لهفتى إليه ، وتخضب وجهى بحمرة الخجل ، وأنا أقول :

- أنت أوحشتنى أكثر .

وذهبنا معا لرؤية النتيجة ..

ونجح (عمر) ..

وفى غمرة سعادته بنجاحه ، قلت له فى حماس :

- لقد حصلت على وظيفة .

تطلع إلى بدهشة ، فأخبرته بالأمر كله ، وأطل تأثر واضح من عينيه ، وهو يتطلع إلى عينى ، قائلا :

- (هبة) .. ماذا كان يمكننى أن أفعل بدونك ؟

كانت هذه أروع عبارة سمعتها من بين شفتيه ..

ماذا كان يمكن أن يفعل بدونى ؟! ..

ألا يعنى هذا أننى متميزة ؟! ..

إننى أفضل منها ..

من (ليلى) ؟!

يومها فقط شعرت أننى تفوقت عليها ، وأننى أصبحت أحتل فى قلبه مكانة خاصة لن يمكنها الوصول إليها قط ..

ولكن ما إن حل الليل ، حتى عاد الشعور بالقلق ينتابنى ..

من أدرانى أنه ما زال يعتبرنى أفضل (أخت) فى الدنيا ، وأنها وحدها تحتل مكان الحبيبة فى قلبه ؟! ..

من أدرانى أننى لست سوى صديقة عزيزة تقدم الخدمة تلو الخدمة لصديقها، وأننى لم أحتل فى قلبه قط موقع الحبيبة ؟!

ذلك الموقع الذى ظفرت به (ليلى) ..

(ليلى) ابنة عمه ..

وحبيبته ..

أقلقتنى هذه الخواطر والأفكار ، طوال اليومين التاليين وانتزعت منى فرحتى وسعادتى بكلماته وموقفه ، حتى علمت من أبى أنه قد تسلم عمله بالفعل فى واحدة من الشركات ، بمرتب لا يحلم به من يسبقه بسنوات من الخبرة .

وأن هذا من أجل خاطرى وحدى ..

ولأن لهفتى لرؤيته تنتصر دوما على كل مشاعرى الأخرى قررت أن أذهب لتهنئته فى مكتبه الجديد ..

وذهبت ..

ارتديت يومها أفضل أثوابى ، وكأننى فى طريقى إلى حفل اختيار ملكة جمال (مصر) ، لأننى كنت أشعر فى أعماقى بأننى فى منافسة دائما مع حبيبته القديمة..

مع (ليلى) ..

كنت واثقة من أننى أجمل وأفضل منها ، إلا أننى لم أستطع التغلب على ذلك التوتر العنيف فى أعماقى تجاهها ، وأنا فى طريقى إليه .

وعندما وصلت إلى مكتبه ، كان قلبى يخفق فى عنف شديد ، وتوترى يبلغ ذروته، وحنقى على (ليلى) يقف على قمة الغضب والثورة ، و ...

ودون أن أطرق الباب ، دفعته لأدلف إلى مكتبه ..

كان يولينى ظهره ، ويتحدث عبر الهاتف فى اهتمام شديد ..

وسمعت اسم (ليلى) على لسانه ..

لست أدرى ماذا أصابنى ، عندما سمعته يردد هذا الاسم ..

لقد تفجرت كل توتراتى وانفعالاتى ، ووجدت نفسى أصرخ بلا وعى :

- (ليلى) ؟! .. (ليلى) مرة أخرى ؟!

التفت إلى فى دهشة ، وأشار إلى سماعة الهاتف ، قائلا :

- إنها زوجة عمى .. أم (ليلى) ، تهنئنى بالوظيفة ، و ...

صرخت بكل غضب الدنيا :

- (ليلى) .. (ليلى) .. ألا يمكنك التفكير فى سواها ؟!

اتسعت عيناه فى شدة ، واعتذر لزوجة عمه فى ارتباك ، وأنهى المحادثة، ثم نهض إلى يسألنى فى حيرة متوترة :

- (هبة) .. ماذا أصابك ؟!

ويبدو أن التفكير فى (ليلى) لعدة أيام متواصلة ألهب أعصابى بحق ، فقد وجدت نفسى أصرخ فى وجهه ثائرة :

- ما الذى فعلته (ليلى) هذه من أجلك ؟! .. أنا فعلت كل شئ .. أنا وحدى.. نقود أبى وثروته هما السبب فى كل ما وصلت إليه حتى الآن ..

اتسعت عيناه فى ارتياع ، وهو يحدق فى وجهى غير مصدق ، ولكننى واصلت فى عصبية زائدة :

- لقد أحضرت آلة تصوير يابانية خصيصا من أجلك ، بدلا من آلة التصوير السخيفة التى تملكها ، وصنعت لك اللافتات الدعائية التى منحتك ذلك الفوز الساحق فى انتخابات اتحادات الطلاب ، وجعلت الأستاذ (رفقى) يفتتح معرضك، وأجبرت والدى على شراء كل صورك من أجل نتيجة العام الجديد ، وبأكبر ثمن

ممكن، كما أجبرته على منحك تلك الوظيفة ، التى لم تكن تحلم بمثلها ، وبالمرتب الذى تحصل عليه منها .. أنا فعلت من أجلك كل شئ ، وفى النهاية لا تفكر إلا فى (ليلى) هذه .. (ليلى) وحدها .

تلاشت نظرة الارتياع من عينيه ، وانعقد حاجباه فى صرامة وهو يقول :

- كفى .

صرخت فى وجهه :

- كلا .. لن أكف .. ينبغى أن تعلم أن (ليلى) لم تكن لتمنحك نصف.. أو حتى عشر ما منحتك أنا إياه .. (ليلى) لم ..

أمسك كتفى فجأة فى قوة ، وارتجفت الكلمات على شفتيه فى غضب ، وهو يقول فى حدة :

- (ليلى) لم يعد لها وجود .

رجتنى كلماته حتى الأعماق ، فحدقت فى عينيه مرددة :

- لم يعد لها وجود ؟!

أجابنى فى عصبية شديدة ، لم أعهدها منه قط :

- نعم .. (ليلى) لم يعد لها وجود .. (ليلى) ماتت .

انتفض جسدى كله فى عنف ، وأنا أهتف ذاهلة :

- ماتت ؟!

تخلى عن كتفى ، وهو يقول فى توتر :

- نعم .. (ليلى) ماتت قبل أن ألتقى بك بعام كامل .. ماتت بسبب سائق (أتوبيس) أرعن .

اتسعت عيناى فى شدة ، وأنا أتمتم :

- ولكن تلك الصورة فى المعرض !!

أشاح بوجهه ، وهو يقول فى مرارة :

- لو سألت ، لعلمت أن تلك الصورة تتصدر كل معارضى .. إنها الصورة الوحيدة التى التقطتها لها .

ثم التفت يرمقنى بنظرة نارية ، مضيفا :

- التقطتها لها بآلة التصوير القديمة السخيفة.

انهار كيانى كله فى أعماقى ، وأنا أتطلع إليه فى ذهول ، فى حين عاد هو إلى مكتبه فى بطء ، وجمع أشياءه القليلة من فوقه ، ثم اتجه إلى الباب فى صمت، وأدار عينيه ، ليلقى على نظرة أخيرة ..

نظرة جمدتنى فى مكانى ، لكل ما حملته من لوم وحزن وعتاب واستنكار،و...

وحب ..

نعم .. حب ..

فى تلك اللحظة فقط أدركت أن (ليلى) لم تنافسنى فى قلبه قط .

ربما كانت حبيبته فيما مضى ، ولكنها لم تعد كذلك الآن ..

لقد كان يحبنى أنا طوال الوقت ..

أنا ..

ولست أدرى لماذا تجمدت فى مكانى ، والتصقت قدماى بالأرض ، وهو يغادر المكان؟! ..

لماذا لم أقفز لأتعلق به ، وأصرخ بأننى لم أقصد أو أعنى كلمة واحدة مما قلتها له ؟! ..

وأننى أحبه بكل جوارحى ..

بكل كيانى ..

بكل لهفتى ورغبتى كأنثى ..

لست أدرى حتى هذه اللحظة كيف تركته يرحل ؟! ..

كنت أعلم أننى جرحت كرامته ، ومزقت قلبه بلا رحمة ..

وأنه لن يغفر لى هذا قط ..

لقد رحل (عمر) ..

لم يرحل من الشركة وحدها ، ولكنه رحل من (القاهرة) كلها ..

حتى أسرته لم تكن تعلم إلى أين ذهب ..

كل ما يعلمونه هو أنه اتخذ قراره بأن يعمل وينجح ..

وبدون (هبة) ..

بدون ثروة والدها واتصالاته ..

ومن مدن شتى كانت تصلهم رسائله ، التى تبشرهم بنجاحه فى مجال التصوير، وفى سعادته بعمله الجديد ..

أما أنا ، فقد وصلتنى منه رسالة لم يكتبها ..

رسالة أدركتها منذ اللحظة التى ترك فيها العمل ..

رسالة تقول : إن قلبه ليس للبيع ..

لقد أحبنى لأننى (هبة) ، وليس لأننى ابنة رجل ثرى ، يمكنها أن تمنحه كل شئ فى الدنيا ..

إنه لم يكن ينشد آلة تصوير فاخرة ، أو لافتات دعائية أنيقة ، أو وظيفة محترمة براتب ضخم ، عندما ربط قلبه بقلبى ..

فقط ، كان ينشد حبى ..

الحب الخالص النقى ..

الحب الذى لم أنجح فى منحه إياه ..

ولم أفز به منه ..

لقد بذلت قصارى جهدى ، لمعرفة ، أين يعمل (عمر) ويقيم ..

ولكننى فشلت ..

أرجوكم ، ابحثوا عنه معى ..

أبلغوه أننى فهمت رسالته ..

وأننى أحبه ..

وأريده ..

وبأى ثمن .

***

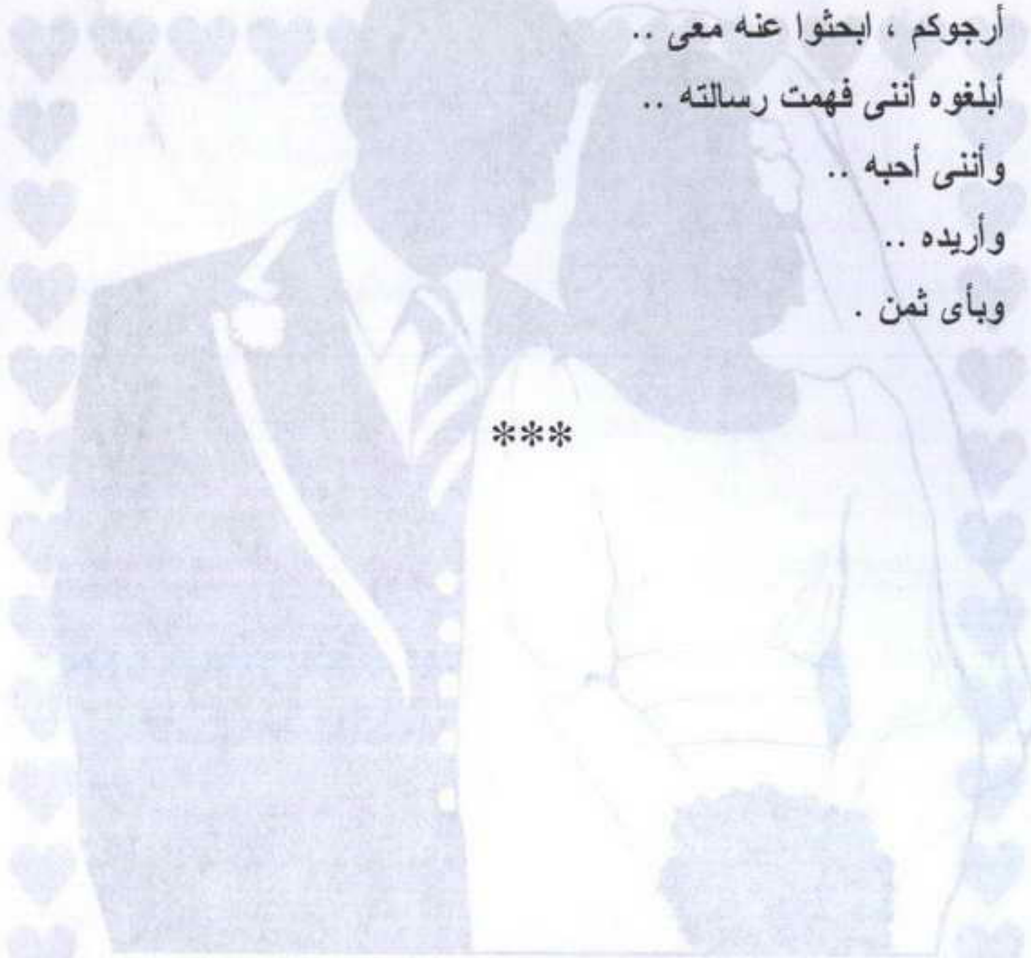

كبرياء

" إنه هو .. "

هذا ما همست به (نادية) لنفسها ، عندما وقع بصرها على وجـــه (صـــادق) وسط رواد الحفل ..

وهذا ما هتف به قلبها ..

لم تكن قد رأته ، أو التقت به ، منذ فسخت خطبتهما ، قبل أربع سنوات ..

ودون أن تدرى ، تسمرت قدماها ، وهى تحدق فى وجهه غير مصدقة ..

هو أيضاً تسمر فى مكانه ، تطلع إليها فى دهشة تمتزج بكثير مـــن اللهفـــة، عبر عشرات الوجوه ، التى تعبر أمام نظره ، والتى لم يعد يـــرى فيـــها ســـوى حواجز محدودة، تحول بينه وبين الفتاة التى أحب فى صباه ..

وفى لهفة ، تحرك كل منهما نحو الآخر خطوة ، ثم توقفا ..

كانت تتمنى لو ارتمت بين ذراعيه ، وذابت فى صدره ..

وكان يتمنى لو ضمها إليه ، وهتف باسمها فى حب وحنان ..

ولكن أحدهما لم يفعل ..

لقد بذلت أقصى جهدها ، لتسيطر على انفعالها ، وبذل أقصى جـــهده ليغلـــب مشاعره، وهما يعاودان تقدمهما نحو بعضهما البعض ، قبل أن يتطلع هو إليها، ويقول مبتسماً :

- إذن فهو أنت .. تصورت أننى أخطأت الرؤية .

هزت كتفيها ، متظاهرة باللامبالاة ، وهى تقول :

- نفس شعورى .

سألها ، وهى يخفى لهفته فى أعماقه :

- ماذا تفعلين هنا ؟

أجابته ، وهى تتشاغل بالنظر حولها ، حتى لا تفضحها عيناها :

- إنه حفل الشركة التى أعمل بها .

رفع حاجبيه فى دهشة حقيقية ، وهو يهتف :

- الشركة التى تعملين بها ؟! .. ومنذ متى تعملين هنا ؟

أجابته ، وهى تواصل التشاغل بالنظر حولها :

- منذ شهر واحد .

قال :

- إذن فنحن نعمل الآن فى شركة واحدة .

شعرت بنبرة لهفة فى صوته ، ولكنها تجاهلتها وهى تسأله :

- أتعمل بنفس الشركة ؟

لوح بكفه ، وهو يقول فى زهو :

- إننى مدير الدعاية بها .

مدير الدعاية ؟!..

إذن فهو رئيسها المباشر ، الذى كان من المفروض أن تلتقى به الليلة .. هو مديرها ..

لا .. لن يمكنها احتمال هذا ..

لن تعمل أبداً تحت رياسته ..

وفى شموخ ، رفعت أنفها ، قائلة :

- لست أظننى سأستمر فى العمل .

سألها فى دهشة :

- لماذا ؟ .. إنها شركة معروفة ، ونصف شباب (مصر) يتمنون الالتحاق بالعمل فيها.

قالت فى عناد :

- إلا أنا .

لم تسمع منه جواباً أو تعليقاً ، لفترة تزيد على نصف الدقيقة ، فأدارت عينيها إليه فى تساؤل ، وأربكها أن رأته يتطلع إليها فى اهتمام ، وتضرج وجهها بحمرة الخجل، فأشاحت به بعيداً قبل أن يسألها هو :

- ماذا فعلت ، فى هذه السنوات الأربع ؟

غمغمت فى عصبية :

- أهنئك ؛ لأنك تذكر الوقت جيداً .

همس :

- كانت أجمل أيام عمرى .

قالت فى توتر :

- هذه السنوات الأربع ؟!

أجابها ، وهو يميل نحوها :

- بل تلك التى سبقتها .

خفق قلبها فى قوة ، وبذلت قصارى جهدها لإخفاء مشاعرها ، وهو يضيف:

- أيام خطبتنا .

قالت ، وهى تفرك كفيها فى شدة :

- تذكر أنك أنت الذى فسخ الخطبة ، لا أنا .

اعتدل وقال فى ضيق :

- كنت مضطراً ..

سألته فى حدة :

- لماذا ؟

مضت لحظات من الصمت ، وهو يشرد ببصره بعيداً قبل أن يجيب :

- كبريائى أجبرنى على هذا .

قالت فى انفعال :

- أنت الذى صنع منها قضية كبرياء .

أجاب فى توتر :

- كانت كذلك بالفعل .

هزت رأسها نفياً فى عناد ، وهى تقول :

- بل كانت مشكلة عادية ، يمكن أن يواجهها أى شابين مخطوبين .

قال فى حدة :

- لم تكن أبداً مشكلة عادية .. كيف كان بإمكاننا أن نبقى خطيبين ، بعد أن التحقت أنت بالعمل ، وبقيت أنا عاطلاً ؟ . كيف يمكن لرجل شرقى أن يرتبط بأنثى تنفق عليه؟

أجابته بحدة مماثلة :

- كانت مشكلة مؤقتة ، وكنت ستجد عملاً أفضل بالتأكيد .

جاء دوره ليشيح بوجهه ، وهو يقول :

- لم أكن احتمل الانتظار أيامها .

أضاف فى عصبية :

- ثم إن والديك أبديا استنكارهما لذلك الوضع أيامها .

قالت فى ضيق :

- كان عليك أن تحتملهما ، حتى نتجاوز الأزمة .

أجاب محنقاً :

- لم أستطع أيامها .

تطلعت إليه لحظات فى صمت ، قبل أن تقول :

- ولكن ها أنتذا قد وجدت عملاً جيداً .

هز كتفيه ، قائلاً :

- احتاج الأمر إلى عام كامل ، قبل أن أحصل عليه ، ولكننى استطعت الترقى فى سرعة بإخلاصى الشديد وكفاءتى .

- هذه واحدة من مميزات القطاع الخاص .

تطلع إليها مرة أخرى فى صمت ، ثم سألها :

- وماذا عنك ؟

هزت كتفيها ، قائلة :

- لم احتمل سوى عام واحد ، ثم تركت العمل .

قال :

- ولكنك وجدت عملاً هنا .

قالت فى عناد :

- قلت لك : إننى لن استمر فى هذا العمل .

أراد أن يرجوها أن تبقى ، وتمنى لو بقيت بالفعل ، إلا أن كبرياءه منعه من أن يعلن ذلك ، فاكتفى بالقول :

- هذا شانك .

ثم ألح على ذهنه سؤال ، لم يمكنه مقاومته ، فسألها بغتة :

- هل تزوجت ؟

لم تكن قد فعلت ..

لم تكن حتى قد قبلت خطبة غيره ، منذ افترقا ..

ولكنها - على الرغم من هذا - أجابته فى كبرياء :

- إننى مخطوبة ، وسيعقد قرانى فى الخميس القادم .

بدت على وجهه علامات خيبة الأمل ، وهو يقول :

- حقاً ؟!

ثم لم يلبث ان اعتدل ، وشد قامته ، وهو يقول :

- مبارك .

خفضت عينيها ، دون أن تنبس ببنت شفة ، فاستطرد هو فى مرح مفتعل:

- أنا أيضاً فى طريقى لعقد قرانى .

رفعت عينيها إليه فى ذعر ، هاتفة :

- عقد قرانك ؟!

أومأ برأسه فى عصبية ، وقال محاولاً التظاهر بالمرح :

- نعم .. إنها زميلة لى هنا ، ونحن متحابان ، و...

لم يستطع إتمام عبارته ، فبترها على الفور ، وساد بينهما الصمت ، وكلاهما يتطلع إلى عينى الآخر فى أسى ، قبل أن تقول هى :

- أتمنى لك مستقبلاً سعيداً ..

تمتم فى خفوت :

- وأنت أيضاً .

مدت أصابع مرتجفة لمصافحته ، والتقت أصابعهما ، وهى تغمغم مقاومة دموعها:

- الوداع .

ردد فى مرارة :

- الوداع .

أولى كل منهما الآخر ظهره ، وابتعدا فى خطوات متثاقلة بطيئة ..

لقد فرقتهما مرة ثانية تلك اللعنة ..

لعنة الكبرياء ..

***

الخمسة

" لابد أن نفترق .. "

انتفض (كريم) فى دهشة ، وهو يحدق فى وجه (شهيرة) ، بعد أن نطقت هذه العبارة ، وارتجفت الكلمات على شفتيه ، وهو يغمغم :

- ماذا يا (شهيرة) ؟

قالت فى عصبية :

- نفترق يا (كريم) .. هذا هو قرارى الأخير .

تطلع إليها لحظة فى ارتياع ، فتابعت وهى تتحاشى النظر إلى عينيه :

- لقد فكرت فى أمرنا جيداً ، ووجت أن علاقتنا غير منطقية ، فأنـــا أكـــبرك بعام كامل، وأدرس فى كلية عملية ، فى حين تدرس أنت فى كلية نظرية .

قال فى أسى :

- ولكننى سأحصل على شهادة (الليسانس) هذا العـــام ، ويمكننـــى التقـــدم لخطبتك فور حصولى على عمل مناسب ، و ...

قاطعته فى توتر :

- مستحيل يا (كريم) .. مستحيل !

ارتجفت شفتاه ، وهو يقول :

- ولكننى أحبك .

تنهدت قائلة :

- أعلم هذا .

قال فى شئ من الرجاء :

- وأنت تحبيننى .

هتفت فجأة :

– هذا لا يكفى .. إنك تتحدث على نحو عاطفى بحت ، أما أنا فـأفكر بشكـل عملى منطقى .. كيف يمكننا أن نتزوج ؟.. ومتى ؟ .. لقد حسبت الأمر بعقلى ، ووجدت أن زواجنا مستحيل !

قال فى عصبية :

– الإنسان لا يحسب كل أمور الدنيا بعقله .

قالت محتدة :

– خطأ .. الإنسان الذى لا يحسب كل الأمور بعقله ، هـو إنسـان فـاشل ، فالعاطفة وحدها لا تقيم حياة سعيدة .

قال فى توتر :

– ولا العقل وحده .

نهضت فى حزم ، وهى تقول :

– ليس هذا ما أومن به .

وحملت حقيبتها ، مستطردة :

– وعلى أية حال ، لست هنا لمناقشة الأمر .. لقد اتخذت قرارى .. الوداع يا (كريم).

هتف بها وهى تبتعد :

– (شهيرة) .. إننى أحبك .

ولكنها لم تتوقف ..

ولم تلتفت إليه ..

لقد أسرعت تبتعد ، بكل ما تملك من قوة وكأنها تفر من صوته ، ومشاعره، وحبه..

نعم .. إنها تحبه ..

ليس لديها أدنى شك فى هذا ..

ولكن عقلها يرفض مثل هذه العلاقة ..

يرفضها بشدة ..

وطوال الطريق إلى منزلها ، راحت تكتم دموعها فى إصرار ، إلا أنها لم تكد تغلق باب حجرتها خلفها ، حتى وجدت نفسها تبكى بحرارة ..

لقد اتخذت القرار بمحض إرادتها ..

وبمنتهى الحزم ..

فلماذا تبكى الآن ؟..

لماذا تشعر وكأنها قد انتزعت قلبها بيدها ، ووطئته بقدمها ، فسحقته علـى أرض المنطق والعقل ؟ ..

ولكنها لم تتراجع ..

لن تتراجع أبداً ..

ستعتصر قلبها ..

ستدفن خفقاته فى صدرها ، وتخفى آلامه عن وجهها ، وتمحو حزنـه مـن عينيها..

لن تستسلم أبداً ..

أبداً ..

وكجزء من قرارها ، رفضت تماماً التحدث إلى (كريـم) ، أو مناقشـة أمـر انفصالها عنه مع شقيقتها أو أصدقائها المشتركين ..

وفهم (كريم) الموقف ..

وانسحب ..

ومع انسحابه ، لم تشعر بذلك الارتياح الذى تصورت أنها ستشعر به ..

لقد شعرت بالخواء ..

شعرت وكأنها أصبحت تحيا فى فراغ تام ..

ولكنها قاومت ..

وتخرج (كريم) من كليته النظرية ، وسافر للعمل فى الخـــارج ، فـــى حيـــن انهمكت هى فى دراستها العملية ، حتى نالت شهادتـــها بعـــده بعـــدة أشـــهر ، والتحقت بالعمل فى مكان أنيق معروف ، قررت أن تصبح واحدة من قيادته بعـــد سنوات قليلة، لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ..

وفى عملها ، التقت بـــ(عارف) ..

شاب طموح ، عملى ، تخرج من نفس كليتها ويسبقها بعام واحد ..

وعلى نحو مباشر ، وبشكل عملى تماما ، فاتحها (عارف) برغبته فى التقدم لخطبتها ..

وحسدتها زميلاتها ، على فوزها بقلب (عارف) ، الذى يتوقع الجميع مستقبلا مرموقا ، فى هذا العمل بالذات ..

ولكنها لم تشعر بالسعادة ..

كان عقلها شديد الاقتناع بـــ(عارف) ،ولكن قلبها ما يزال هادئـــا ، مســـتكينا يتطلع إليه فى رصانة وبشئ من اللامبالاة ..

إنها لم تشعر بخفقات قلبها قط ، كلما التقت به ..

لم تراودها اللهفة يوما لرؤيته ..

ولكنها مقتنعة به تمام الاقتناع ..

والعجيب أنها لم تعلن له موافقتها على الفور ..

لقد طلبت منه مهلة للتفكير ..

ومنحها (عارف) المهلة ..

منحها إياها فى هدوء وبساطة ، ثم عاد ينهمك فى عمله ، وكأنـــه لا يشعـــر بوجودها..

وكانت المهلة أسبوعا واحدا ..

وفى سرعة ، مضت أيام الأسبوع ..

فجأة وجدت أنها مطالبة بإعلان قرارها فى الصباح التالى ..

والعجيب أن (عارف) لم يشر إلى المهلة قط طوال الأسبوع ، ولكنه التقى بها فى اليوم السابق لانتهاء المهلة ، وقال فى حسم :

- موعدنا غداً ..

أجابته فى خفوت :

- بإذن الله .

تطلع إليها لحظة ، ثم قال فى هدوء :

- أريد جوابا حاسما وصريحا .

تنهدت وقالت :

- ستحصل عليه .

انصرف على الفور ، دون أن يلتفت ليلقى نظرة أخرى عليها ، فاتجهت إلى مكتبها، وراحت تعيد النظر فى كل ما يتعلق به ..

ومرة أخرى ، وافق عقلها بلا تردد على الارتباط به ، وامتنـــع قلبـــها عـــن التصويت، وتركها حائرة مرتبكة ..

وهتفت فى أعماقها :

- ماذا أريد بالضبط ؟ .. ألم أصر على الاستجابة لصوت العقل ؟

واتخذت قرارها فى حسم ..

ستعلن موافقتها على الارتباط به ..

ولن تنتظر الغد ..

ستعلن موافقتها الآن ..

فى هذه اللحظة ..

ونهضت من خلف مكتبها فى حزم ، واتجهت إلى باب الحجرة ، وفتحته فى قوة،و...

وسرت فى جسدها ارتجافة قوية ..

لقد وجدته أمامها مباشرة ..

(كريم) ..

(كريم) بابتسامته الهادئة ، ونظراته الدافئة الحنون ..

وبصوت مرتبك ، غمغم (كريم) :

- معذرة .. كنت ماراً من هنا ، و... ، و ...

لم يستطع إتمام عبارته ، وهو يتطلع إليها فى لهفة وحب ، فأفسحت له الطريق، وهى تقول :

_ أهلاً بك يا (كريم) .. تفضل .. تفضل على الرحب والسعة .

دلف إلى حجرتها فى ارتباك ، واتخذ المقعد المقابل لمكتبها ، فاتجهت هى للجلوس خلف مكتبها ، وهى تقول :

- حمدا لله على سلامتك .. متى عدت ؟

أجابها فى خفوت :

- اليوم .. بل الآن ..

ثم ازدرد لعابه ، وقال :

- الواقع أننى أتيت مباشرة ، من المطار إلى هنا .

قالت فى دهشة :

- أين حقائبك إذن ؟

تخضب وجهه بحمرة خفيفة ، وهو يجيب :

- لست أحمل أية حقائب .. فقط هذه .

وأخرج من جيبه علبة مخملية صغيرة ، ناولها إياها ، وهو يستطرد مرتبكا :

- سوف .. سوف أعود بطائرة المساء .

أدهشها أن يأتى ويرحل فى يوم واحد ، ولكنها التقطت العلبة ، وهى تسأله:

- ما هذه ؟

ابتسم فى حنان وهو يقول :

- الهدية .. هدية عيد مولدك .. كل عام وأنت بخير .

شهقت مع مرأى ذلك الخاتم الماسى الرائع ، الذى يستقر داخل العلبة ، ثم رفعت عينيها إليه غير مصدقة ..

إنه يذكر تاريخ مولدها ، وسافر من حيث يعمل إليها ، ليقدم لها هديته ، ويعود فى اليوم نفسه ..

يا لها من لمسة رائعة ..

وخفق قلبها بشدة ..

ولأول مرة منذ افترقا ، عادت تشعر بلذة الحب واللقاء ..

وفى خجل وارتباك ، غمغم (كريم) :

- هل .. هل راقت لك الهدية ؟

ابتسمت فى سعادة ، وهى تقول :

- إنها شبكة رائعة ..

برقت عيناه فى سعادة ، وهو يهتف فى لهفة :

- (شهيرة) .. هل تعنين ؟

أجابته فى حب واضح :

- نعم .. لو أنك قد غفرت لى .

هتف فى فرح غامر :

- غفرت لك ؟! .. وهل نسيت حبك لحظة واحدة يا حبيبتى ؟

وفى مساء اليوم نفسه ، كان يضع دبلته فى إصبعها ، وقلبـــها يخفــق فـــى شدة..

لقد استعادت كل حبها له بلمسة ..

لمسة حب واحدة .

***

التائه

" الأربعون على الأبواب ، والعمر يمضى .. " .

ترددت تلك العبارة فى رأس (فكرى) للمرة الألف ، وهو يستقبل عيد مولـــده هذا الصباح..

إنه عامه الأربعون ..

نقطة الانتقال ، من عالم الشباب والرجولة ، إلى مرحلة الكهولة ، وأعتـــاب الشيخوخة..

وعنـــدما ذكر هذا لوالده ، قهقه ضاحكاً ، وقال وهو يربت على كتفـــه فـــى حرارة:

– ماذا أقول أنا إذن ، وسأحتفل بعيد مولدى السادس والستين ، بعد شهر أو يزيد.

كان والده يقولها وهو مفعم بالحيوية والنشاط ، وابتســـامته تمـــلأ وجهـــه الباسم، الذى تحيط به هالة من الشعر الأشيب ، الذى زاده مهابة ووقاراً ..

ولكن (فكرى) كان يشعر بأنه أكبر من والده ..

ربما لأنه لم يحظ بعد بما حظى به والده ، منذ بلغ عمره ربع القرن بالتمـــام والكمال..

لم يتزوج بعد ..

وتنهد (فكرى) فى أسى ، وهو يستعيد ذكريات مضت ..

ذكرى تلك المرة الوحيدة ، والتى حاول فيها الزواج ..

كان فى الرابعة والعشرين من عمره ، تخرج منـــذ عام واحـــد مـــن كليـــة التجارة، والتحق بالعمل فى بنك وطنى صغير ، عندما التقـــى بزميلـــة دراســـته (هبة)، التى ربط الحب بين قلبه وقلبها ، منذ عامها الأول فى الكلية ، وقال لـــها فى لهفة :

– (هبة) .. اعتقد أنه يمكننى التقدم لطلب الزواج منك الآن .

كان يتوقع منها فرحة عارمة ، وسعادة لا حد لها ، وهما اللـــذان يخططـــان للزواج منذ تخرجهما ، ولكنه فوجئ بوجهـــها يشحـــب ، وبعينيـــها تغرورقـــان بالدموع، وبشفتيها ترتجفان فى مرارة ، فهتف بها جزعاً :

– ماذا حدث يا (هبة) ؟ .

يومها تركت دموعها تغمر وجهها الجميل ، وهى تخفض عينيها ، قائلة :

– لقد تقدم لى عريس آخر .

انتقل شحوبها إليه ، وقفزت ارتجافتها إلى شفتيه وصوته ، وهو يقول :

– عريس آخر ؟!

بكت فى مرارة ، وهى تشرح له كيف رآها ذلك المقاول ، فى أثناء عودتـــها إلى منزلها، وكيف تبعها ، وعرف عنوانها واسمها ، ثم تقدم لطلب يدهـــا مـــن والدها الموظف البسيط ، واعداً إياه بأنه لن يطالبه بأى شئ ، وسيتكفل وحـــده بكل متطلبات الزواج ، إلى جانب استعداده لشراء شبكة غالية الثمن ، ودفع مهر محترم ، وإقامة حفل زواج يليق بمقامه ، وتجهيز شقة فـــاخرة بـــأفخم الأثـــاث وأحدث الأدوات ..

ولم يجد والدها مبررا للرفض ، وهو الذى يستيقظ كـــل صبـــاح مـــهموما ، يتساءل: كيف يمكنه تجهيز بناته الثلاث للزواج ؟

كانت بالنسبة إليه فرصة لا تعوض ، لتزويج كبرى بناته ، دون أن يتكلـــف قرشا واحدا..

وكانت الموافقة فورية ، وتمت قراءة الفاتحـــة ، وتحديـــد موعـــد الخطبـــة والزواج..

واستقبل (فكرى) حديثها – آنذاك – كمن يتلقى صدمة كهربية عنيفة ..

لقد انتفض جسده فى عنف ، وجلس يحدق فيها ذاهلا مصعوقا ، حتى نهضت هى تمسح دموعها ، وتقول فى همس حزين :

– وداعاً يا (فكرى) .. لن أنساك أبداً .

وانهار هو تماماً ..

لم يستطع أبداً استيعاب فكرة العريس الثرى ، الـــذى يظـــهر فجـــأة ملوحـــاً بأمواله، فيخطف قلباً شاباً ، ويحطم آخر ..

وفى اليوم نفسه ، تسلل ليلقى نظرة على ذلك المقاول ، وهو يتمنى أن يجده ضخماً أصلع الرأس ، تحيط بكرشه الضخم حلة غالية الثمن ، فاسدة الذوق ..

ولكن الصورة جاءت مختلفة تماماً ..

لقد وجده رجلاً وسيماً أنيقاً ، قوى الشخصية ، مهاب الطلعة ..

وفى حفـــل الزفاف ، الذى حضره خلسة ، تبين له أن (هبة) قد انتبهت إلـــى كل تلـــك الصفات فى عريسهـــا ، فقد كانت هناك ابتسامة خلابة تضئ وجهـــها، وهى تتـــأبط ذراعه ، وتصعد معه إلى مسرح صغير ، لتقطيـــع كعكـــة الزفـــاف الضخمـــة..

وبكى (فكرى) طويلا ..

بكى حتى جفت دموعه ، ثم اتخذ قراره بعدم الزواج إلى الأبد ، والتركيز على بناء مستقبله..

وفى اليوم التالى ، استقال (فكرى) من عمله فى البنك ، وقرر اقتحام عـــالم الأعمال الحرة ..

وكانت أنجح خطوة فى حياته ..

ففى الأعوام التالية ، راح يتنقل من نجاح ، إلى نجاح واشتهر بحسن سيرته فى مجال بيع السيارات المستعملة ، حتى افتتح معرضا لبيعها ، فى منطقة هادئة أنيقة، ثم لم يلبث أن حصل على توكيل لبيع واحدة من أشهر طرازات الســـيارات فى العالم، وانضم اسمه إلى قائمة كبار رجال الأعمال فى (مصر) ..

ولكنه لم يتزوج بعد ..

لقد انهمك فى عمله تماماً ، حتى أنه نسى نفسه ومستقبله ، ولم ينتبه إلـــى أنه لم يتزوج حتى أصبح على أعتاب الأربعين ..

لحظتها بدا كالتائه ، فى صحراء الحياة الجرداء ، يلهث من أجل قطرة ماء ، ولمحة من الظل ...

وفجأة أيضاً ، بدأت عيناه تتابعان الحسناوات ، فى رواحهن وغدوهن، وقلبه يخفق مع كل وجه جميل وابتسامة فاتنة ..

وفى صباح عيد مولده ، تضاعف لديه هذا الإحساس عشرات المرات ..

إحساس التائه ..

وعندما زار أمه ، وانحنت لتطبع قبلة على وجنته ، وتهنئة بعيـــد مولـــده ، فاجأها قائلا :

- أريد أن أتزوج .

لم تصدق الأم نفسها فى البداية ، وهى التى طالما ألحت عليه ليتزوج ، ثـــم تهللت أساريرها وهى تهتف فى سعادة :

- مبارك .. مبارك ..

ثم مالت نحوه ، هامسة فى جذل :

- أهناك واحدة بعينها ؟

هز رأسه نفيا ، وهو يجيب :

- كلا .. ابحثى لى عن زوجة مناسبة .

اعتدلت أمه ووجهها يهتف بالبشر وقالت فى حماس :

- غال والطلب رخيص .

وفى المساء نفسه ، وهو يطفئ شموع عيد الميلاد ، كانت تحمل له عشرات الصور، لعشرات الفتيات الجميلات ..

وانتقى هو واحدة سحرته ابتسامتها، وخلب جمالها الهادئ لبه ، ولكن والدته قالت:

- إنها للأسف - أفقرهن ، فوالدها مجرد موظف بسيط ، و ...

قاطعها فى حسم :

- هذا لا يهم .. سأتكفل بكل شئ ..

أخبريهم هذا .. المال لا يهمنى قط .

وابتسمت أمه ، قائلة :

- على بركة الله .

ولم يمض أسبوع واحد ، حتى كان يجلس فى منزل الفتاة التـــى اختارهـــا ، وهى تجلس أمامه صامتة ، وإلى جوارها والداها ، اللذان رحبا به فى حـــرارة ، وابتسما فى ارتياح ، وهو يؤكد أنه سيتكفل بكل المصروفات ، من الألـــف إلـــى الياء ، ثم أعلن الأب موافقته بلا تحفظ ، وشد على يده ، وهما يقرآن الفاتحة ، فى حين أطلقت أم العروس زغرودة قوية مجلجلة ، وكأنها تعلن خـــبر الـــزواج للحى بأكمله..

أما العروس نفسها ، فقد بدت ساهمة واجمة ، وكأنما باغتها الأمر ، أو لـــم ينل رضاها..

وعندما صارح أمه بهذا ، وهما فى طريق العودة ، قهقهت ضاحكة ، وقالت:

- كلهن هكذا .. إنها تراك لأول مرة ، والخجل يعقد لسانها .

وقنع بهذا التفسير ، وهو يرقد فى فراشه مبتسماً ، ويهنئ نفسه على الفوز بتلك الساحرة ، التى فتنت قلبه منذ اللحظة الأولى .

وفى الصباح التالى ، بدأ يشاهد معارض الأثاث ، ويتفقد قاعات الأفراح فـــى الفنادق الكبرى ، و...

وفجأة ، وقع بصره عليها ..

خطيبته الشابة الفاتنة ، وشاب فى مثل عمرها ..

كان يجلسان حول مائدة صغيرة ، فى حديقة مطلة على النيل ، هى تبكى فى مرارة وحرارة ، وهو يحدق فيها ذاهلاً مصدوماً ..

وفهم (فكرى) كل شئ من النظرة الأولى ..

فهم ما يعنيه هذا المشهد ..

بل رأى نفسه جزءاً منه ..

لم يكن أحد الجالسين حول المائدة ، بل كان ذلك المقاول ، الذى انتزع منه (هبة)..

وفى المساء نفسه ، زار (فكرى) خطيبته ، وأعلنها أنه رآها مع حبيبها ، وقبل أن تفزع ، شرح لها أن هذا لم يؤذه ، وأنه يفهم موقفها .. بل وطالبها بأن ترسل الشاب للعمل فى شركته بمرتب ضخم ، يتيح لهما الزواج وتأثيث منزل مناسب..

وبكت الفتاة بين يديه ، وهى تشكر له شهامته ورجولته وكرمه ..

وغادر هو منزلها وهو يبتسم فى ارتياح ..

وحضر إليه الشاب بالفعل ، وألحقه هو بالعمل ، وساعدهما على الزواج ، وكان شاهد العقد فى حفل زفافهما ..

ولكنه لم يفكر بعدها فى الزواج قط ..

لقد اكتفى بذلك الشعور الذى ملأ كيانه كله ، فانزاحت عنه كل المشاعر الأخرى..

شعور التائه .

***

نشرت كل هذه الأعمال على نحو منفصل
فى سلسلتى:

كوكتيل٢٠٠٠ و بانوراما

ضمن سلاسل

روايات مصرية للجيب

التى تصدر عن

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

فهرس

١-	الوداع	٥
٢-	الانتظار	١١
٣-	صديقتها	١٥
٤-	الوسيم	٢٣
٥-	بدون عمل	٣٣
٦-	مسألة مبدأ	٤٥
٧-	قطرات العطش	٥١
٨-	الزهرة	٧٩
٩-	رسالة	٨٧
١٠-	قلبى ليس للبيع	٩٥
١١-	كبرياء	١٢٩
١٢-	لمسة	١٣٧
١٣-	التائه	١٤٧

رقم الإيداع بدار الكتب:٨٥٤٨/٩٩

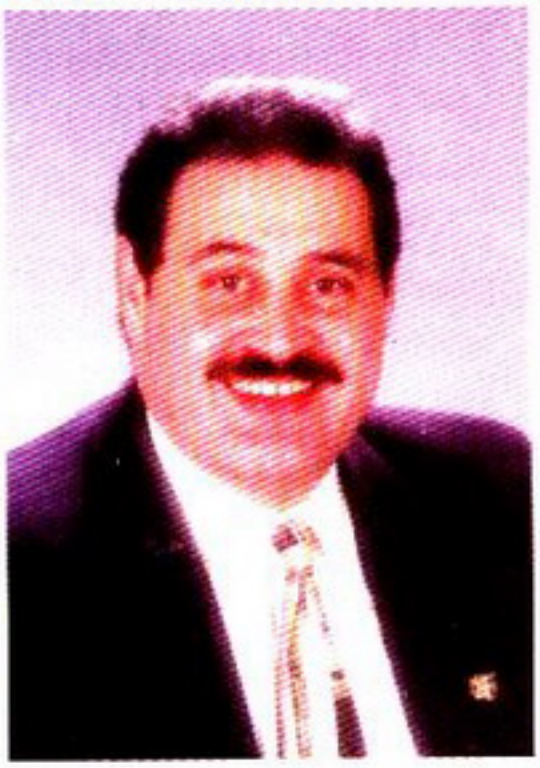

د.نبيل فاروق

قلبي ليس للبيع

علمتنا الأيام أنه لكل شئ في الوجود ثمن.....

والحب ليس استثناءً...

حتى الحب له ثمن....

الفارق الوحيد هو أن ثمن الحب ....

حب...